# الدُّرَّة الفَاخِرَة
## في
# كَشْفُ عُلُومِ الآخِرَة

للإمام حجة الإسلام أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد الغزالي
المتوفى سنة ٥٠٥ هـ

ويليه
## الحكمة في مخلوقات الله عز وجل
للمؤلف نفسه

تحقيق
محمد عبد القادر أحمد عطا

مؤسسة الكتب الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

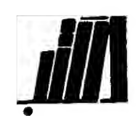
# الدُّرَّة الفَاخِرَة

في

# كشفُ عُلومِ الآخِرَة

ملتزم الطبع والنشر والتوزيع
مؤسسة الكتب الثقافية فقط

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



مؤسسة الكتب الثقافية
الصنائع . بناية الإتحاد الوطني . الطابق السابع . شقة ٧٨
• هاتف المكتب : ٢٤٨٢٦٣ - ٢٤٤٣٦١ - المنزل : ٣١٥٧٥٩
ص.ب : ١١٤/٥١١٥ - برقيا : الكتبكو - تلكس : ٤٠٤٥٩
بيروت - لبنان



يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾

فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

[الفجر ٢٧ - ٣٠].

# حجة الإسلام الغزالي
## حياته وشمائله

### نسبه ومولده:

هو الإمام زين الدين، حجة الإسلام، أبو حامد: محمّد بن محمّد بن محمد الغزالي، الطوسي، النيسابوري، الفقيه الصوفي، الشافعي، الأشعري.

ولد في مدينة طوس التي كانت ثاني مدينة في خراسان بعد نيسابور، وذلك عام ٤٥٠ هجرية.

قال ابن عساكر: ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربعمائة، وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين، وجدّ واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة، وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه، وصنف.

وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه، ثم خرج من نيسابور، وحضر مجلس الوزير نظام الملك، فأقبل عليه وحلّ منه محلاً عظيماً لعلو درجته، وحسن مناظرته. وكانت حضرة نظام الملك محطاً لرحال العلماء، ومقصد الأئمة والفضلاء، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول، فظهر اسمه، وطار صيته. فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية، فسار وأعجب الكل تدريسه ومناظرته، فصار إمام أهل العراق بعد أن حاز إمامة خراسان، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى فترك بغداد، وخرج عما كان فيه من الجاه مشتغلاً بأسباب التقوى.

وفي سنة ٤٨٩ هـ قدم دمشق وأقام بها مدة قصيرة، ثم رحل من دمشق إلى بيت المقدس، وأخذ في تصنيف كتابه الإحياء، وأخذ في مجاهدة النفس، وتغيير الأخلاق وتحسين الشمائل، وتهذيب المعاش.

فانقلب شيطان الرعونة، وطلب الرياسة، والجاه، والتخلق بالأخلاق العظيمة إلى سكون، وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والتزيينات، والتزيي بزي الصالحين وقصر الأمل، ووقف الأوقاف على هداية الخلق ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة، وتبغيض الدنيا، والاشتغال بها على السالكين، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية، والانقياد لكل من يتوسم فيه، أو يشتم منه رائحة المعرفة أو اليقظة لشيء من أنوار المشاهدة، حتى مرن على ذلك ولان.

ثم عاد إلى وطنه لازماً بيته، مشتغلاً بالتفكر، ملازماً للوقت، مقصوداً نفيساً، وزخراً للقلوب.

**مصنفاته:**

ذكر الفقيه محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي في كتابه «الطبقات العلية في مناقب الشافعية» ٩٨ مصنف. وذكر السبكي في «طبقات الشافعية» ٥٨ مصنفاً. وذكر طاش كبرى زادة في «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» أن مصنفاته بلغت ٨٠ مصنفاً، وقال: «وكتبه ورسائله خارج عن حد العدة والإحصاء، ولم يتيسر لأحد معرفة أسماء مصنفاته كلها، حتى يقال إن له ألف مصنف إلّا واحداً، وهذا وإن كان بعيداً عادة، ولكن من عرف شأنه ربما يصدق».

وقد تتبع الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي» مصنفاته فبلغت ٤٥٧ مصنف، نذكر منها:

١ - إحياء علوم الدين: وقد طبع عدة طبعات منها طبعة بولاق سنة ١٢٦٩، ١٢٧٩، ١٢٨٢، ١٢٨٩، واستانبول ١٣٢١، وطهران ١٢٩٣، ودار القلم، بيروت، بدون تاريخ.

٢ - الأدب في الدين: وهو مطبوع ضمن «مجموعة الرسائل» القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م من ص ٦٣: ٩٤.

٣ ـ الأربعين في أصول الدين: وهو مطبوع في القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م، والمكتبة التجارية بالقاهرة، بدون تاريخ.

٤ ـ أساس القياس: ذكر الغزالي في «المستصفي» ١/٣٨، ٢/٢٣٨، ٣/٣٢٥، طبعة مصر سنة ١٣٢٤ هـ/١٩٠٧ م. وذكر في «الطبقات العلية في مناقب الشافعية» لمحمد بن الحسين الحسيني الواسطي. مخطوط، دار الكتب المصرية رقم ٧ مجاميع. والدكتور عبد الرحمن بدوي ٦١.

٥ ـ الاستدراج: وذكره الغزالي في «الدرة الفاخرة» ص ٥٧ من الطبعة التي بين أيدينا. ومنه نسخة مخطوطة [ برقم ١٨ تصوف عربي ] آصفية.

٦ ـ أسرار معاملات الدين: ذكره السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » ٤/١١٦، وذكره أيضاً محمّد بن الحسن في « الطبقات العلية في مناقب الشافعية ». والغزالي في «منهاج العابدين» ص ٣٢. والدكتور عبد الرحمن بدوي ٦٨ .

٧ ـ الاقتصاد في الاعتقاد: طبع في القاهرة، مصطفى القباني سنة ١٣٢٠ هـ. وعلى هامش « الإنسان الكامل » للجيلاني، طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ. ومع «المنقذ»، و«المضنون» و«تربية الأولاد » بومباي بدون تاريخ. وترجم إلى الاسبانية.

وذكره السبكي ٤/١١٦، والزبيدي في الإتحاف ١/٤١، و«الطبقات العلية».

٨ ـ إلجام العوام عن علم الكلام: طبع باستانبول سنة ١٢٧٨ هـ، والقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ، ١٣٠٩ هـ، ١٣٥٠ هـ بعناية محمّد علي عطية الكتبي. وسنة ١٣٥١ هـ، إدارة الطباعة المنيرية. وترجم أيضاً إلى الاسبانية.

٩ ـ الإملاء على مشكل الإحياء: طبع في فاس سنة ١٣٠٢؛ وعلى هامش « إتحاف السادة المتقين » للزبيدي، وعلى هامش عدة طبعات من الإحياء.

١٠ ـ أيها الولد: طبع ضمن مجموعة بالقاهرة عام ١٣٢٨ ، وعام ١٣٤٣ ضمن « الجواهر الغوالي من رسائل حجة الإسلام الغزالي ». وفي استامبول سنة

١٣٠٥ ، وقازان سنة ١٩٠٥ مع ترجمة تركية لمحمّد رشيد. وترجم أيضاً إلى الألمانية، ترجمة هامر يرجشتل في فييناعام ١٨٣٨. وترجمه إلى الفرنسية الدكتور توفيق صباغ ضمن منشورات الأونسكو سنة ١٩٥١، بعنوان Traité du Disciple.

١١ ـ الباب المنتحل في علم الجدل: ذكره ابن خلكان ٣/٣٥٤، والسبكي ٤/١١٦، بعنوان: « الباب المنتحل في علم الجدل». وذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» بعنوان: «الباب المنتحل في الجدل» والدكتـور عبد الـرحمن بدوي ٧ .

١٢ ـ بداية الهداية: طبع عدة طبعات منها طبعة بولاق ١٢٨٧، والقاهرة ١٢٧٧، وسنة ١٣٠٣، ومع تعليقات لمحمد النـواوي الجاري بـالقاهـرة عام ١٣٠٨ هـ، وبولاق ١٣٠٩، ولوكنو ١٨٩٣، والقاهرة ١٣٠٦ ، ١٣٢٦ ، وبومباي سنة ١٣٢٦، والقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ. والقاهرة ١٩٨٥ م مكتبة القرآن، تحقيق محمد عثمان الحنشت. وترجم إلى الإنجليزية ـ والألمانية.

١٣ ـ البسيط في الفـروع: منه مخـطوط في الـديـوان الهنـدي ١٧٦٦، والاسكوريال ط١ ١٢٢٥، والفاتح باستانبول برقم ١٥٠٠، والسليمانية ٦٢٩، قليج علي ٣٢٧، ودمياط عمـومية ٤٤، والأول والرابع والخامس والسادس منه في الظاهرية برقم ١٧٤ : ١٧٦ فقه شافعي، ودار الكتب المصرية برقم ٢٧ فقه شافعي، وهو ناقص. وبرقم ٢٢٣ فقه شافعي.

١٤ ـ غاية الغور في دراية الدور: منه بالمتحف البريطاني، الملحق برقم ١٢٠٣ [١]، وراغب باستانبول برقم ٥٦٩ في ٧٥ ورقة، وهمبرج ٥٩، ودار الكتب المصرية رقم ٣٦٥٩، ٣٦٦٠ تصوف بعنوان: مسألة طلاق الدور.

١٥ ـ التأويلات: ذكره بروكلمان، ملحق ١/٧٤٧، برقم ٢١. ومنه مخطوطة بمكتبة آيا صوفيا باستانبول في المجموع رقم ٢٢٤٦.

١٦ ـ التبر المسبوك في نصائح الملوك: أصل الكتاب بالفارسيـة بعنوان «نصيحة الملوك». وترجمه إلى العربية علي بن مبارك بن موهوب للأتابك ألب قتلج في الموصل، المتوفى سنة ٥٩٥ هـ. وطبع بالقاهرة، عام ١٢٧٧ هـ، وعلى هامش

« سراج الملوك » للطرطوشي، بالقاهرة عام ١٣٠٦، ١٣١٩.

١٧ ـ تحصين المآخذ: وهو في علم الخلاف. ذكره السبكي ١٤٣/٤، وابن قاضي شهبة ٨، وابن العماد في الشذرات ١٣/٤. ومؤلفات الغزالي للدكتور عبد الرحمن بدوي ١٠.

١٨ ـ تلبيس إبليس: ذكره السبكي ١١٦/٤، ومفتاح السعادة لطاش كبرى ٢٠٨/٢، وحاجي خليفة بعنوان تدليس إبليس ٢٥٤/٢.

١٩ ـ التعليقة في فروع المذهب: ذكره السبكي ١٠٣/٤، والدكتور عبد الرحمن بدوي ١.

٢٠ ـ التفرقة بين الإسلام والزندقة، ذكره الغزالي في «المنقذ» ص ٩٧، طبعة دمشق ١٩٣٤، وأشار إليه أيضاً في « المستصفي» ١١٧/١، القاهرة ١٩٣٤. وطبع في القاهرة ١٣١٩ هـ، و١٣٢٥ هـ بعنوان: « رسالة في الوعظ والعقائد ». وطبع في الهند في مجموع رسائل طبعها قاضي إبراهيم في بومباي، طبع حجر سنة ١٢٨٣ هـ من ص ٣: ٢٤.

وترجمه إلى الألمانية، A. l. Runge في Kiel, 1938. ولخصه بالإسبانية A sin Palacios في ElJusto Medio en la Creenzia مدريد سنة ١٩٢٩.

٢١ ـ تفسير القرآن العظيم: ذكره الزبيدي في « إتحاف السادة المتقين» ٤٣/١. والذكتور عبد الرحمن بدوي ٥٣.

٢٢ ـ تهافت الفلاسفة: طبع في القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ، سنة ١٣١٩، سنة ١٣٢٠، سنة ١٣٢١، ١٩٥٥. وفي بومباي طبع حجر سنة ١٣٠٤.

وترجمه إلى اللاتينية G. Calonymus، ونشره عام ١٥٢٧ م، بعنوان Destretio Philosophiae، وقد طبع مرتين في البندقية سنة ١٥٢٧، وسنة ١٥٦٢. وهذه الترجمة عن الترجمة العبرية.

وترجمه إلى اللاتينية عن العربية أوجستينو نيفو، وشرحه، وقد طبعت هذه الترجمة في بادوا سنة ١٤٩٧ م.

وترجمه إلى الفرنسية البارون كارا دي فو في مجلة «موزيون» التي تصدر في لوفان سنة ١٨٩٩.

٢٣ ـ تهذيب الأصول: أورده صاحب الطبقات العلية، وذكره الغزالي في «المستصفي» ١/٣. والدكتور عبد الرحمن بدوي ٥٩.

٢٤ ـ جواب الغزالي عن دعوة مؤيد الملك له لمعاودة التدريس بالنظامية في بغداد: ذكره دولتشاه في «التذكرة» [نشرة إدوارج براون، ليدن سنة ١٩٠١] ص ٩٩. وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٠.

٢٥ ـ الجواهر اللآلىء في مثلث الغزالي: مخطوط بدار الكتب المصرية برقم [٥٥ حروف].

٢٧ ـ جواهر القرآن ودرره: طبع في مكة سنة ١٣٠٢، وبومباي بالهند سنة ١٣١١ هـ، والقاهرة سنة ١٣٢٠ هـ طبع فرج الكردي، وسنة ١٣٥٢ هـ بالمطبعة التجارية.

٢٨ ـ حجة الحق: ذكره الغزالي في المنقذ ص ١١٨ طبعة دمشق سنة ١٩٣٤، وصاحب «الطبقات العلية»، وذكره السبكي أيضاً ٤/١١٦، وذكره الغزالي في جواهر القرآن ص ٢١، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٣، والدكتور عبد الرحمن بدوي ٢٣.

٢٩ ـ حقيقة القرآن: ذكره الغزالي في «المستصفي» ١/٦٧. وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٦٢.

٣٠ ـ حقيقة القولين: ذكره ابن خلكان ١/٥٨٧، وحاجي خليفة ٣/٨٠، وصاحب «الطبقات العلية» وبركلمان الملحق ١/٧٥٤. وتوجد منه نسخة مخطوطة في ينى جامع ٨٦٥، وفي برلين برقم ٤٨٥٩ Spies BAd 2I.

٣١ ـ الحكمة في مخلوقات اللّه عزّ وجلّ: وهو الكتاب الثاني من هذا الموضوع، وسنرجىء الحديث عنه.

٣٢ ـ خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر: ذكره السبكي ٤/١١٦، وهو

خلاصة مختصر المزني، وأشار الغزالي إليه في كتابه «إحياء علوم الدين» ١/٣٥، وفي «جواهر القرآن» ص ٢٢، وقال إنه أصغر تصانيفه في الفقه.

ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات برقم [ ١٧٤ فقه شافعي ]، عن النسخة السليمانية رقم ٤٤٢ في ١٠٠ ورقة.

٣٣ ـ الدرج المرقوم بالجداول: ذكره الغزالي في المنقذ ص ١١٨، طبعة دمشق سنة ١٩٣٤، وذكره صاحب «الطبقات العلية» بعنوان «الجداول المرقوم»، وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٤١.

٣٤ ـ الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة: وهو الكتاب الأول ضمن هذا المجموع، وسنرجىء الكلام عليه في حينه.

٣٦ ـ الرسالة الوعظية: وتسمى أيضاً «الوعظية»، و«مواعظ الغزالي». طبعت ضمن «الجواهر الغوالي من رسائل الإمام الغزالي». ص ١٥٣ : ١٥٩، القاهرة ١٣٤٣ هـ. ونشرها محيي الدين صبري الكردي.

٣٧ ـ زاد آخرت: وقد ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٤٨، ومنه مخطوط بليدن برقم ٢١٨٤.

٣٨ ـ سر العالمين وكشف ما في الدارين: طبع في بومباي، سنة ١٣١٤، والقاهرة سنة ١٣٢٤، وطهران بدون تاريخ.

٣٩ ـ شفاء الغليل في القياس والتعليل: ذكره السبكي ١١٦/٤، وحاجي خليفة ٥٤/٤، والدكتور عبد الرحمن بدوي ١٢. ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم [١٥٤ أصول فقه]، والأزهرية برقم [١٠٧] ٤١٨٣ أصول فقه في ١٨١ ورقة. والأمبروزيانا رقم (119 VII) 78.

٤٠ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: ذكره الغزالي في «المنقذ» ص ٩٧، دمشق ١٩٣٤، والمستصفي ١١٧/١. وطبع في القاهرة عام ١٣١٩ هـ، ١٣٢٥ هـ بعنوان رسالة في الوعظ والعقائد. وطبع في الهند في مجموع رسائل طبعها قاضي إبراهيم في بومباي، طبع الحجر سنة ١٢٨٣ هـ من ص ٣ : ٢٤.

وترجم إلى الألمانية، ترجمة A.I.Runge في 1938 وKiel. ولخصه بالإسبانية

A Sin Palacios في E.l. Justo Medio en la Creenzia، مدريد سنة ١٩٢٩ .

٤١ ـ قواصم الباطنية: ذكره الغزالي في «جواهر القرآن» ص ٢٦. والدكتور عبد الرحمن بدوي ٢٤ .

٤٢ ـ الكشف والتبيين في غزو الخلق أجمعين: طبع على هامش «تنبيه المغرورين» للشعراني، القاهرة سنة ١٣٤٠، وطبع وحده بالقاهرة سنة ١٩٦٠، مكتبة مصطفى الحلبي.

٤٥ ـ كمياء السعادة: طبع النص الفارسي في كلكتا بدون تاريخ، وطبع حجر في لولكنو سنة ١٢٧٩ هـ، وفي بومباي سنة ١٨٨٣ م.

وترجم النص الفارسي إلى التركية مصطفى الواني المتوفى سنة ١٥٩١ م، ولم يطبع، ومنه نسخة مخطوطة في آيا صوفيا برقم ١٧١٩، ١٧٢٠، ٢٠٢٦. وترجمه أيضاً إلى الإنجليزية عن الترجمة التركية H.A. Homes بعنوان:

A lebemy of bappiness, by Mohammed al-Chazzali, the Mohammedan Philosophe - Albany, New York, 1873.

أما النص العربي، فقد ذكر الزبيد في الإتحاف ٤٢/١، أنه يوجد إلى جانب النص الفارسي الكبير نص عربي صغير في أربعة كراريس. وقد طبع النص العربي ضمن مجموعة رسائل طبعها مصطفى كردي، القاهرة سنة ١٣٢٨، ١٣٤٣ هـ.

وترجم النص العربي إلى التركية مصطفى الواني، وطبعت الترجمة في استانبول سنة ١٢٦٠. وترجمت أيضاً إلى الأردية في لولكنو سنة ١٣١٣، وإلى الإنجليزية، والألمانية.

٤٦ ـ لباب النظر: ذكره الغزالي في معيار العلم ص ٢٧، طبع سنة ١٩٢٧. وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٩.

٤٧ ـ محك النظر في الفقه: ذكره الغزالي في «الاقتصاد في الاعتقاد» ص ١١، المطبعة المحمودية بالقاهرة، والدكتور عبد الرحمن بدوي ٦. ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم [ مجاميع م ٢٢٧]، ومجاميع طلعت ٩٦٧.

٤٨ ـ المستصفي من علم الأصول: طبع في بولاق سنة ١٣٢٢ في جزئين، وعلى هامشه «فواتح الرحموت للأنصاري»، والمطبعة التجارية سنة ١٩٣٧ جزءان في مجلد واحد.

٤٩ ـ المستظهري في الرد على الباطنية: ذكره السبكي ١١٦/٤ باسم «المستظهري في الرد على الباطنية»، وذكره الغزالي في المنقذ ١١٨. وابن العماد ١٣/٤. وترجم أسين بلاثيوس قطعاً منه. وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٢٢.

٥٠ ـ المقصد الأسنى في شرح أسماء اللّٰه الحسنى: طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٤، وبالمكتبة العلامية بالقاهرة بدون تاريخ. ومكتبة القرآن بالقاهرة عام ١٩٨٦ بتحقيق محمد عثمان الخشت.

٥١ ـ المنقذ من الضلال: طبع باستانبول سنة ١٢٨٦ هـ، سنة ١٣٠٣ هـ، وبالقاهرة سنة ١٣٠٩، وعلى هامش الإنسان الكامل. وترجم إلى الفرنسية ثلاث مرات، وإلى الإنجليزية مرتين، وإلى التركية، والهولندية.

٥٢ ـ الوجيز: طبع بالقاهرة مطبعة المؤيد سنة ١٣١٧ في جزءين.

٥٣ ـ الوسيط: ذكره ابن خلكان ٣٥٤/٣، والسبكي ١١٦/٤، وابن العماد ١٢/٤. ومنه نسخة مخطوطة في دمياط برقم [عمومية ٤٣ [٣١/١٢٤] ] ودار الكتب المصرية برقم ٢٠٦ فقه شافعي في ٤ مجلدات. والظاهرية برقم ١٢٧: ١٢٩، ١٢٤: ١٢٦ فقه شافعي.

وشرحه عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح، وسمي الشرح «شرح مشكل الوسيط» منه مخطوطة بدار الكتب المصرية، وأخرى بدمياط برقم ٤٣ [٤/١٣٣].

واختصره البيضاوي، وسمي المختصر: «الغاية القصوى» ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، ودمياط برقم ٤٨ [٣١٢] عمومية.

هذا إلى جانب عدد كبير من المصنفات التي صنفها حجة الإسلام الغزالي لا تسعها هذه العجالة.

**وفــاتــه:**

قال ابن عساكر: ومضى إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخـرة سنة خمس وخمسمائة. ووفق بظاهر قصبة طابران. والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة في الآخرة، كما خصه بقبول العلم في دنياه بمنه.

وقال ابن الجوزي في المنتظم: سأله قبيل الموت بعض أصحابه: أوصني، فقال: «عليك بالإخلاص»، فلم يزل يكررها حتى مات»[1].

---

(١) انظر ترجمة المصنف في: ( وفيات الأعيان ١/٤٦٣، وطبقات الشافعية ٤/١٠١، وشذرات الذهب ٤/١٠، والوافي بالوفيـات ١/٢٧٧، و Brock. 1:535 (419), S. 1:744، ومفتاح السعـادة ٢/١٩١: ٢١٠. وتبيين كذب المفتـري ٢٩١: ٣٠٦، ومعجم المطبـوعـات ٤٠٨: ١٤١٦، وآداب اللغة ٣/٩٧، واللباب ٢/١٧٠، والأعلام ٧/٢٢، ٢٣. والطبقات العلية في مناقب الشافعية، مخطوط من ورقة ٨٤ أ، وإتحاف السادة المتقين ١/٢٧، وما بعدها، وتاريخ دمشق لابن عساكر، مخطـوط ١/٣٤٠، وسير أعلام النبلاء، للذهبي، مخطوط، المجلد الثاني عشر لوحة ٧٤ ب).

# الكتاب ومنهج التحقيق

## أولاً: كتاب الدرة الفاخرة:

ذكره السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» ١١٦/٤، وطاش كبرى زادة في «مفتاح السعادة» ٢٠٨/٢، بعنوان «كشف علوم الآخرة».

وقد سبق طبع الكتاب في القاهرة عام ١٢٨٠، ١٣٠٣، ١٣٠٨، ١٣٢٣ هـ، ١٩٢٥ م، ١٣٤٦ هـ.

وترجمه إلى الألمانية:

Die Kostbar Perle über Todund Jenseits, überselzt von. M. Brugsch. Hannover 1924.

وللكتاب شرح مجهول المؤلف من القرن التاسع، وهو مخطوط بالمكتبة العامة الشرقية في بنكيبور في ٢٨ ورقة، مسطرتها ١٩ سطراً، وينقصه صفحات من الوسط والآخر[١].

وشرح آخر لمحمد علي بن محمد علان بن إبراهيم بن محمد بن علان بن عبد الملك بن مبارك شاه الصديقي البكري، المتوفى ١٠٥٧ هـ وسماه: «غوص البحار الزاخرة للدرة الفاخرة» وهو مخطوط بدار الكتب المصرية في ٢٠٩ ورقة، ومسطرتها ٢١ سطراً. وقد فرغ من تأليفه سنة ١٤٠٧ هـ، وتمت كتابته في ٣ رجب سنة ١١٣٦، ورقمه [تصوف حليم ١٧٢].

أما النسخ المخطوطة، فتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم [٥ خليل آغا]. كتبت سنة ١٢٦٥ هـ في ٤٤ ورقة.

ونسخة أخرى في دار الكتب تحت رقم [٣٧٤ مجاميع طلعت] من ورقة

---

(١) انظر (مفتاح الكنوز الخفية ٤٩٧/١٠).

١ : ٢٣، وتاريخ نسخها ٧٨٧ هـ.

وأخرى بدار الكتب المصرية تحت رقم [٢٨٠٠ تصوف]، [٣١٥٨ تصوف] في ٥١ ورقة، مسطرتها ١٣ سطراً، وتاريخ نسخها ٨٩٧ هـ.

وأخرى بدار الكتب المصرية تحت رقم [٢٧٠ مجاميع ت] كتبت سنة ١١٦٨.

وتوجد منه نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم [ن ٣٦٤٦].

## ثانياً: كتاب الحكمة في مخلوقات الله عزّ وجلّ:

سبق طبع هذا الكتاب عدة طبعات منها طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ، وسنة ١٩٠٥ م، وسنة ١٩٠٨ م. وقد تمت الطبعة الأولى سنة ١٣٢١ هـ وفقاً لمخطوط برلين. وأعيد طبعه بمطبعة مصطفى البابي الحلبي عام ١٣٥٢ هـ/١٩٣٤ م.

أما النسخ المخطوطة فتوجد منه نسخة ببرلين ٨٧٤٧، وتاريخ كتابتها ٩٢١ هـ على يد عبد الله بن أبي عبد الله الطرابلسي، وباريس ٢٣١٠، ومن النسخة الباريسية نسخة مصورة بالتصوير الشمس بدار الكتب المصرية برقم ٢٩٦٣.

**منهج التحقيق:**

١ ـ بعد نسخ الكتاب قمنا بمراجعته على الأصول الخطية، وتخليصه من الأخطاء المطبعية وغيرها.

٢ ـ قمت بتخريج الآيات القرآنية ومراجعتها على المصحف، وإثبات أرقامها من سورها بالهامش.

٣ ـ قمت بتخريج الأحاديث النبوية من الكتب المعتمدة.

٤ ـ قمت بشرح الألفاظ التي يصعب فهمها.

٥ ـ عرفت بمؤلف الكتاب وعرضت لبعض مصنفاته.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وابتغاء مرضاته، والحمد لله رب العالمين.

**المحقق**

**محمد عبد الخالق عبد القادر أحمد عطا**

# مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خص نفسه بالدوام، وحكم على من سواه بالانصرام[1]، وجعل الموت حال أهلِ الكفر والإسلام، وفصل بعلمه بين تفاصيل الأحكام، وجعل حكم الآخرة خلفاً للمعهود من الأيام، وأنهج ذلك لمن يشاء من خلقه أهل الإكرام.

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الملك العلام، وعلى آله وصحبه الذين خصهم بجزيل الإنعام في دار السلام.

أما بعد، فقد قال الله تعالى: ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾[2].

وثبت ذلك في كتابه العزيز في ثلاثة مواضع، وإنما أراد الله سبحانه وتعالى الموتات الثلاث للعالمين.

فالمتحيز إلى العالم الدنيوي يموت، والمتحيز إلى العالم الملكوتي يموت، والمتحيز إلى العالم الجبروتي يموت. فالأول: آدم وذريته، وجميع الحيوانات على ضروبه الثلاثة. والملكوتي، وهو الثاني أصناف الملائكة والجن. وأهل

---

(١) الصرم: القطع البائن. وعم بعضهم به القطع أي نوع كان، وهو: اسم للقطيعة، وفعله الصرم. والانصرام: الانقطاع، والتصرم: التقطع. (لسان العرب ٢٤٣٧).

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٨٥.
سورة: الأنبياء، الآية: ٣٥.
سورة: العنكبوت، الآية: ٥٧.

الجبروتي فهم المصطفون من الملائكة، قال الله تعالى: **﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾**[1].

فهم كروبيون، وروحانيون، وحملة العرش، وأصحاب سرادقات الجلال، الذين وصفهم الله تعالى في كتابه وأثنى عليهم، حيث يقول: **﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾**[2].

وهم أهل حظيرة القدس المعينون المنعوتون بقول الله تعالى: **﴿لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾**[3].

وهم يموتون على هذه المكانة من الله تعالى، والقربى وليس زلفاهم بمانعة لهم من الموت.

فأول ما أذكر لك عن الموت الدنيوي، فألق أذنيك لتعي ما أورده، وأصفه لك بنقل عن الانتقال من حال إلى حال، إن كنت مصدقاً بالله ورسوله واليوم الآخر، فإني ما آتيك إلا ببينة، شهد الله على ما أقول، ويصدق مقالتي القرآن، وما صح من حديث رسول الله ﷺ.

***

---

(١) سورة: الحج، الآية: ٧٥.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ١٩، ٢٠.

(٣) سورة: الأنبياء، الآية: ١٧.

# فصـــل

## بدء الخلق

## الموتة الأولى والحياة الثانية

لما قبض الله القبضتين اللتين قبضهما عندما مسح على ظهر آدم عليه السلام، فكل ما جمعه في جمعه الأول إنما جمعه من شقه الأيمن، وكل ما جمعه في الآخر إنما جمعه من شقه الأيسر.

ثم بسط قبضته سبحانه فنظر إليهم آدم في راحتيه الكريمتين، وهم أمثال الذَّرُّ[1]، ثم قال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي فهم بعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فهم بعمل أهل النار يعملون.

فقال آدم عليه السلام: يا رب، وما عمل أهل النار؟ قال: الشرك بي، وتكذيب رسلي، وعصيان كتابي في الأمر والنهي.

قال آدم عليه السلام: أشهدهم على أنفسهم عسى أن لا يفعلوا. فأشهدهم

---

(١) الذَّرُّ: صغار النمل، واحدته ذَرَّةٌ. قال ثعلب: إن مائة منها وزن حبة من شعير، فكأنها جزء من مائة.

وقيل: الذَّرَّةُ ليس لها وزن، ويراد بها ما يرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة.

وذر الله الخلق في الأرض: نشرهم، والذرية فعيلة منه. وهي منسوبة إلى الذَّرِّ الذي هو النمل الصغار.

قال أبو إسحاق النحوي: الذرية غير مهموز، ومعنى قوله تعالى: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم**﴾ أن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر حين أشهدهم على أنفسهم. انظر: (لسان العرب ١٤٩٤).

على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا. وأشهد عليكم الملائكة وآدم، انهم أقروا بربوبيته، ثم ردهم إلى مكانهم، وإنما كانوا أحياء أنفساً من غير أجسام.

فلما ردهم إلى صلب آدم عليه السلام أماتهم، وقبض أرواحهم، وجعلها عنده في خزانة من خزائن العرش، فإذا سقطت النقطة المتعوسة، اقرت في الرحم، حتى تمت صورتها، والنفس فيها ميتة.

فلجوهرها الملكوتي منعت الجسد من النتن، فإذا نفخ الله تعالى فيها الروح، رد إليها سرها المقبوض منها الذي خبأه زماناً في خزانة العرش، فاضطرب المولود.

فكم من مولود دب في بطن أمه، فربما سمعته الوالدة، أو لم تسمعه. فهذه موتة أولى، وحياة ثانية.

# فصـــل
## الموتة الثانية
## الموتة الدنيوية

ثم ان الله عز وجل أقامه في الدنيا أيام حياته حتى استوفى أجله المحدود، ورزقه المقدور، وآثاره المكتوبة.

فإذا دنت موتته، وهي الموتة الدنيوية، فحينئذ نزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى، وملك يجذبها من قدمه اليسرى، وملك يجذبها من يده اليمنى، وملك يجذبها من يده اليسرى[١].

### سكرات الموت:

وربما كشف الأمر للميت عن الأمر الملكوتي قبل أن يغرغر، فيعاين الملائكة على حقيقة عمله على ما يتحيزون إليه من عالمهم، فإن كان لسانه منطلقاً تحدث بوجودهم، فربما أعاد على نفسه الحديث بما رأى، وظن أن ذلك من وغل الشيطان، فسكن حتى يعقل لسانه، وهم يجذبونها من أطراف البنان، ورؤوس الأصابع، والنفس تنسل انسلال القذاة من السقاء، والفاجر تسل روحه كالسفود من الصوف المبلول. هكذا حكى صاحب الشرع عليه الصلاة والسلام[٢].

---

(١) راجع: شرح الصدور، للسيوطي، ص٣٣، دار المدني.

(٢) قال تعالى في سورة الأنعام، الآية ٩٣: **﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾**.

وأخرج الطبراني في المعجم الكبير، وأبو نعيم، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن نفس المؤمن تخرج رشحاً، وإن نفس الكافر تسيل كما تسيل نفس الحمار...»** الحديث. وقد أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: «فيه القاسم بن مطيب وهو ضعيف».

=

والميت يظن أن بطنه ملئت شوكاً، كأنما نفسه تخرج من خرم إبرة، وكأنما السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما.

ولهذا سئل كعب رضي الله عنه، عن الموت، فقال: «كغصن شوك أدخل في جوف رجل، فجذبه إنسان ذو قوة، فقطع ما قطع، وأبقى ما أبقى»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لسكرة من سكرات الموت أشد من ثلاثمائة ضربة بالسيف»[2].

---

= وقال السيوطي في كتاب شرح الصدور: أخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة، عن الحسن، قال: «قيل لموسى عليه السلام: كيف وجدت الموت؟ قال: كسفود أدخل جوفي له شعب كثيرة، تعلق كل شعبة منه بعرق من عروقي، ثم انتزع من جوفي نزعاً شديداً، فقيل له: لقد هوّنا عليك».

وأخرج ابن أبي الدنيا، عن شهر بن حوشب مرفوعاً: «إن الموت بمنزلة حسكة كانت من صوف، فهل تخرج الحسكة الصوف من الصوف إلاّ ومعها صوف»؟.

انظر: (شرح الصدور ٢٨، ٣١، ٣٢. مجمع الزوائد ٣٢٦/٢، ٣٢٧. حلية الأولياء ٥٩/٥).

(١) أخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وأبو نعيم في الحلية، عن ابن أبي مليكة، أن عمر رضي الله عنه قال لكعب: «أخبرني عن الموت؟ قال: يا أمير المؤمنين، هو مثل شجرة كثيرة الشوك في جوف ابن آدم، فليس منه عرق ولا مفصل إلا فيه شوكة، ورجل شديد الذراعين، فهو يعالجها وينزعها».

ولفظ ابن أبي شيبة: «كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل، فأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب، فأخذ ما أخذ، وأبقى ما أبقى».

انظر: (شرح الصدور ٣٣. حلية الأولياء ٤٤/٦).

(٢) ذكره السيوطي في شرح الصدور، وعزاه لابن أبي الدنيا، عن الحسن، أن رسول الله ﷺ ذكر ألم الموت وغصته، فقال: «هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف». وقال السيوطي: رجاله ثقات.

وأخرج أيضاً عن الضحاك بن حمزة، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الموت، فقال: «أدنى جبذات الموت بمنزلة مائة ضربة سيف».

وأخرج الخطيب عن أنس مرفوعاً: «لمعالجة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف».

وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن واثلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ في حديث: احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلاّ الله، وفيه: «والذي نفسي بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف». =

فعندها يرشح جسده عرقاً، وتزور عيناه، وتمتد أرنبته، وترتفع أضلاعه، ويعلو نفسه، ويصفر لونه[1].

ولما عاينت عائشة رسول الله ﷺ في هذه الحالة، وهو مستلق في حجرها، وهي تكفكف الدمع، جعلت تقول:

| | |
|---|---|
| بنفسي أفدي ما غصك | من الهايعات وما توجع |
| وما مسك الجن من قبل ذا | وما كنت ذا روعة تفزع |
| ومالي أنظر في وجهك | كمثل الصباغ إذا ينقع |
| إذا اشحب اللون من ميت | فأنوار وجهك قد تسطع |

فإذا احتضرت نفسه إلى القلب خرس لسانه عن النطق، وما أحد ينطق والنفس مجموعة في صدره لوجهين:

أحدهما: أن الأمر عظيم، قد ضاق صدره بالنفس المجتمعة فيه. ألا ترى أن الإنسان إذا أصابته ضربة في صدره بقي مدهوشاً، فتارة يتكلم، وتارة لا يقدر على الكلام، وكل مطعون يطعن بصوت إلا مطعون الصدر؛ فإنه يخر ميتاً من غير تصويت.

وأما الآخر: فإن السر الذي فيه حركة الصوت المندفعة من الحرارة الغريزية قد ذهب، فصار نفسه متغير الحالتين: حال الارتفاع، والبرودة؛ لأنه فقد الحرارة، فعند هذا الحال تختلف أحوال الموتى:

**أحوال الموتى:**

فمنهم من يطعنه الملك حينئذ بحربة مسمومة قد سقيت سماً من نار، فتفر النفس وتفيض خارجة، فيأخذها في يده ترعد، أشبه شيء بالزئبق على قدر النحلة شخصاً إنسانياً، ثم الملائكة تناولها الزبانية.

---

= وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده، عن عطاء بن يسار، عن النبي ﷺ، قال: **«معالجة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف، وما من مؤمن يموت إلاّ وكل عرق منه يألم على حده، وأقرب ما يكون عدو الله منه تلك الساعة»**. وقال السيوطي: سنده جيد.

انظر: (شرح الصدور ٣٣، ٣٤. حلية الأولياء ٥/ ١٧٦، ٢٠١/٨).

(١) انظر: (شرح الصدور ٢٩، ٣٠).

ومن الموتى من تحذف نفسه رويداً حتى تنحصر في الحنجرة، وليس يبقى في الحنجرة إلا شعبة متصلة بالقلب، فحينئذ يطعنها بتلك الحربة الموصوفة، فإن النفس لا تفارق القلب حتى يطعن.

وسر تلك الحربة أنها تغمس في بحر الموت، فإذا وضعت على القلب صار سرها في سائر الجسد، كالسم الناقع؛ لأن سر الحياة إنما هو موضوع في القلب، ويؤثر سره فيه عند النشأة الأولى.

وقال بعض المتكلمين: الحياة غير النفس، ومعناها اختلاط الجسد بالنفس.

وعند استقرار النفس في الترقي والارتفاع، يعرض عليه الفتن؛ وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصة، واستعملهم عليه، ووكلهم به.

فيأتون المرء وهو في تلك الحالة فيتمثلون له في صورة من سلف من أحباء الميتين الباغين له النصح في دار الدنيا، كالأب، والأم، والأخ، والأخت، والصديق الحميم.

فيقول له: أنت تموت يا فلان ونحن سبقناك في هذا الشأن، فمت يهودياً فهو الدين المقبول عند الله تعالى، فإن انصرفوا عنه وأبى، جاءه آخرون، وقالوا له: مت نصرانياً، فإنه دين المسيح، ونسخ به دين موسى، ويذكرون له عقائد كل ملة.

فعند ذلك يزيغ الله من يريد زيغه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب**﴾[1].

أي: لا تزغ قلوبنا عند الموت وقد هديتنا من قبل هذا إلى الإيمان.

فإذا أراد الله تعالى بعبده هداية وتثبيتاً جاءته الرحمة، وقيل: هو جبريل عليه السلام، فطرد عنه الشيطان، ويمسح الشحوب عن وجهه، فيبتسم الميت ضاحكاً لا محالة.

وكثير من يرى متبسماً في هذه الحالة، فرحاً مسروراً بالبشير الذي جاء رحمة من الله تعالى، يقول: يا فلان ما تعرفني، أنا جبريل، وهؤلاء أعداؤك من الشياطين، مت على الملة الحنيفية، والشريعة المحمدية.

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٨.

فما شيء أحب إلى الإنسان وأفرح منه بذلك الملك، وهو قوله تعالى: ﴿... وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾[1]. ثم الموت على الفطرة.

ومن الناس من يطعن وهو قائم يصلي، أو نائم، أو مار في بعض أشغاله، أو منعكف على اللهو، وهو البغتة، فتقبض نفسه مرة واحدة.

ومن الناس من إذا بلغت نفسه الحلقوم كشف له عن أهله السابقين، وأحدق به جيرانه من الموتى، وحينئذ يكون له خوار يسمعه كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه لصعق.

**آخر ما يفقده الميت:**

وآخر ما يفقد من الميت السمع؛ لأن الروح إذا فارقت القلب بأسرها فسد البصر، وأما السمع فلا يفقد حتى تقبض النفس، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لقنوا موتاكم شهادة أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله**»[2].

ونهى عن الإكثار بها عليهم؛ لما يجدونه من الهول الأعظم، والكرب الأقصم.

فإذا نظرت إلى الميت، قد سال لعابه، وتقلصت شفتاه، واسودّ وجهه، وازرقت عيناه، فاعلم بأنه شقي، قد كشف له عن حقيقة شقوته في الآخرة.

وإذا رأيت الميت جاف الفم كأنه يضحك، منطلق الوجه، مكسورة عينه، فاعلم أنه بشر بما يلقاه في الآخرة من السرور، وكشف له عن حقيقة كرامته.

---

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٨.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، حديث ١، ٢ من كتاب الجنائز. وأبو داود في سننه، الباب ١٦ من كتاب الجنائز. وسنن الترمذي، الباب ٧ من كتاب الجنائز، والنسائي في سننه، الباب ٤ من كتاب الجنائز. وابن ماجه في سننه، الباب ٣ من كتاب الجنائز. وأحمد بن حنبل في المسند ٣/٢. وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣١٠، ٩/ ٢٢٤. والهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٢٣.

الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه كان يقوم على قبر الرجل من أصحابه إذا دفن، ويقول: «**سلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل**».

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**لقنوا موتاكم لا إله إلاّ الله**»، فتلقين المحتضر سنة مأمور بها.

# موت المؤمن

فإذا قبض الملك النفس السعيدة، تناولها ملكان حسنا الوجـه ، عليهما أثواب حسنة، ولهما روائح طيبة، فيلفونها في حريرة من حرير الجنة، وهي على قدر النحلة شخصاً إنسانياً ما فقد من عقله ولا من علمه المكتسب في دار الدنيا، فيعرجون به في الهواء، منهم من يعرف، ومنهم من لا يعرف، فلا تزال تمر بالأمم السالفة والقرون الخالية كأمثال الجراد المنتشر حتى تنتهي إلى سماء الدنيا.

فيقرع الأمين الباب، فيقال للأمين: من أنت؟ فيقول: أبا صلصيائيل ـ أي: جبريل ـ وهذا فلان، وكانت عقيدته حسنة غير شاك. ثم ينتهي إلى السماء الثانية، فيقرع الأمين الباب، فيقال: من أنت؟ فيقول مقالته الأولى، فيقال: أهلاً وسهلاً بفلان، كان محافظاً على صلاته وجميع فرائضها. ثم يمر حتى ينتهي إلى السماء الثالثة، فيقرع الأمين الباب، فيقال: من أنت؟ فيقول الأمين مقالته الأولى والثانية، فيقال: كان يرعى الله في حق ماله، ولا يتمسك منه بشيء. ثم يمر حتى ينتهي إلى السماء الرابعة، فيقرع الباب، فيقال: من أنت؟ فيقول كدأبه في مقالته، فيقال: أهـلاً بفلان كـان يصوم فيحسن الصـوم، ويحفـظه من إدراك الـرفث وحـرام الطعام. ثم ينتهي إلى السماء الخامسة، فيقرع الباب، فيقال: من أنت؟ فيقول كعادته، فيقال: أهلاً وسهلاً به، أدى حجة الله الواجبة عليه من غير سمعة ولا رياء. ثم ينتهي إلى السماء السادسة، فيقرع الباب، فيقال: من أنت؟ فيقول الأمين مقالته، فيقال: مرحباً بفلان، كان كثير الاستغفار بالأسحار، ويتصدق بالسر، ويكفل الأيتام.

ثم يفتح له، فيمر حتى ينتهي إلى سرادقات الجلال، فيقرع الباب، فيقول الأمين مثل قوله، فيقال: أهلاً وسهلاً ومرحباً بالعبد الصالح، والنفس الطيبة، كان كثير الاستغفار، وينهى عن المنكر، ويأمر بالمعروف، ويكرم المساكين.

ويمر بملأ من الملائكة كلهم يبشرونه بالجنة، ويصافحونه حتى ينتهي إلى سدرة المنتهى، فيقرع الباب، فيقول الأمين كدأبه في مقالته، فيقال: أهلاً وسهلاً ومرحباً بفلان، كان عمله عملاً صالحاً لوجه الله تعالى.

ثم يفتح له فيمر في بحر من نار، ثم يمر في بحر من نور، ثم يمر في بحر من ظلمة، ثم يمر في بحر من ماء، ثم يمر في بحر من ثلج، ثم يمر في بحر من برد، طول كل بحر منها ألف عام، ثم يخترق الحجب المضروبة على عرش الرحمن، وهي ثمانون ألفاً من السرادقات، لكل سرادق ثمانون ألف شرافة، على كل شرافة قمر يهلل لله تعالى ويسبحه ويقدسه، لو برز منها قمر واحد إلى سماء الدنيا لعبد من دون الله ولأحرقها نوره.

فحينئذ ينادي مناد من الحضرة القدسية من وراء السرادقات: من هذه النفس التي جئتم بها؟ فيقول: فلان ابن فلان، فيقول الجليل جل جلاله: قربوه، فنعم العبد كنت يا عبدي.

فإذا أوقفه بين يديه الكريمتين أخجله ببعض اللوم والمعاتبة، حتى يظن أنه قد هلك، ثم يعفو عنه سبحانه.

كما روي عن يحيى بن أكثم القاضي، وقد رئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: وقفني بين يديه، ثم قال: يا شيخ السوء، فعلت كذا، وفعلت كذا، فقال: يا رب، ما بهذا حدثت عنك، قال: فبماذا حدثت عني يا يحيى؟ فقلت: حدثني الزهري، عن معمر، عن عروة عن عائشة، عن النبي ﷺ، عن جبريل، عنك سبحانك، أنك قلت: «إني لأستحي أن أعذب شيبة شابت في الإسلام».

فقال: يا يحيى صدقت، وصدق الزهري، وصدق معمر، وصدق عروة، وصدقت عائشة، وصدق محمد، وصدق جبريل، وقد غفرت لك.

وعن ابن بنانة، وقد رئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك، فقال: وقفني

بين يديه الكريمتين، .وقال: أنت الذي تلخص كلامك حتى يقال ما أفصحه، قلت: سبحانك إني كنت في الدنيا أصفك، قال: قل كما كنت تقول في دار الدنيا، قلت: أماتهم الذي خلقهم، وأسكتهم الذي أنطقهم، وسيوجدهم كما أعدمهم، وسيجمعهم كما فرقهم. قال لي: صدقت، اذهب فإني قد غفرت لك.

وعن منصور بن عمار أنه رئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وقفني بين يديه الكريمتين، وقال لي: بماذا جئتني يا منصور؟ قلت: بستة وثلاثين حجة، قال: ما قبلت منها ولا واحدة، ثم قال: بماذا جئتني؟ قلت: بثلاثمائة وستين ختمة قرأتها لوجهك الكريم، قال: ما قبلت منها واحدة، ثم قال لي: بماذا جئتني يا منصور؟ فقلت: جئتك برحمتك، قال سبحانه: الآن جئتني، اذهب فقد غفرت لك.

وكثير من هذه الحكايات تخبر بهذه الأمور، إنما حدثتك شيئاً ليقتدي به المقتدي، والله المستعان.

ومن الناس من إذا انتهى إلى الكرسي سمع النداء ردّده، فمنهم من يرد من الحجب، وإنما يصل إلى الله تعالى عارفوه، ولا يقف بين يديه إلا أهل المقام الرابع فصاعداً.

***

# فصــل
## موت الفاجر

وأما الفاجر فتؤخذ نفسه عنفاً، فإذا وجهه كآكل الحنظل، والملك يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث، فإذا له صراخ أعظم ما يكون، كصراخ الحمير، فإذا عزرائيل ناولها زبانية قباح الوجوه، سود الثياب، منتني الريح، بأيديهم مسوح من شعر، فيلفونها فيه، فتستحيل شخصاً إنسانياً على قدر الجرادة، فإن الكافر أعظم جرماً من المؤمن - يعني الجسم في الآخرة.

وفي الصحيح: **«أن ضرس الكافر في النار مثل أحد»**[1].

قال: فيعرج به حتى ينتهي إلى باب سماء الدنيا، فيقرع الأمين الباب، فيقال: من أنت؟ فيقول: أنا قيابيل، فيقال: من معك؟ فيقول: فلان ابن فلان،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي في سننه عن أبي هريرة، مرفوعاً، بلفظ: **«ضرس الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث»**.
وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة، بلفظ: ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد، وفخذه مثل البيضاء، ومقعده في النار مسيرة ثلاث مثل الربذة». وقال الترمذي: حسن صحيح.
وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند، والحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة، بلفظ: «ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد، وعرض جلده سبعون ذراعاً، وعضده مثل البيضاء، وفخذه مثل ورقان، ومقعده في النار ما بيني وبين الربذة». وقال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، غير ربعي بن إبراهيم وهو ثقة.
انظر: (صحيح مسلم، حديث ٤٤ من كتاب الجنة. ومسند أحمد ٣٢٨/٢، ٣٣٤، ٥٣٧. والجامع الصغير ٥٢١٢ ـ ٥٢١٥، ٢٥٤/٤٠).

بأقبح أسمائه وأبغضها إليه في دار الدنيا، فيقال: لا أهلاً ولا سهلاً، ولا يفتح له أبواب السماء. ﴿**لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط**﴾[1].

فإذا سمع الأمين هذه المقالة، طرحه من يده فتهوي به الريح في مكان سحيق، أي: بعيد؛ وهو قوله عز وجل: ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق**﴾[2].

فيا له من خزي حل به، فإذا انتهى به إلى الأرض، ابتدرته الزبانية، وسارت به إلى سجّين، وهي صخرة عظيمة تأوي إليها أرواح الفجار.

وأما اليهود والنصارى، فمردودون من الكرسي إلى قبورهم، هذا من مات منهم على شريعته، ويشاهد غسله ودفنه.

وأما المشرك فلا يشاهد شيئاً من ذلك، لأنه قد هوى به.

وأما المنافق فمثل الثاني، يرد ممقوتاً مطروداً الى حفرته.

وأما المقصرون من المؤمنين، فتختلف أنواعهم، فمنهم من ترده صلاته؛ لأنّ العبد إذا نقر في صلاته سارقاً لها تلف كما يتلف الثوب الخلق، ويضرب بها وجهه، ثم تعرج وهي تقول: ضيعك الله كما ضيعتني.

ومنهم من ترده زكاته؛ لأنه إنما يزكي ليقال: فلان متصدق، وربما وضعها عند النسوان، فاستجلب بها محبتهن، ولقد رأيناه عافانا الله مما حل به.

ومن الناس من يرده صومه؛ لأنه صام عن الطعام ولم يصم عن الكلام، فهو رفث وخسران، فخرج الشهر عنه، وقد لهوجه.

ومن الناس من يرده حجه، لأنه إنما حج ليقال فلان حج، أو يكون حج بمال خبيث.

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٤٠.

(٢) سورة: الحج، الآية: ٣١.

ومن الناس من يرده العقوق وسائر أحوال البر كلها، لا يعرفها إلا العلماء بأسرار المعاملات، وتخصيص العمل الذي للملك الوهاب.

فكل هذه المعاني جاءت بها الآثار والأخبار، كالخبر الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه في رد الأعمال وغيرها. وإنما أردت تقريب الأمر، ولولا الاختصار لكنت ملأت الدواوين من تصحيح ذلك، وأهل الشرع يعرفون صحة ذلك كما يعرفون أبناءهم.

***

# عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

فإذا ردت النفس إلى الجسد، ووجدته قد أخذ في غسله إن كان قد غسل، فتقعد عند رأسه حتى يغسل، فيكشف الله عن بصر من شاء من الصالحين، فينظرها على صورتها الدنيوية.

وقد حدث شخص أنه غسل ابناً له، فإذا هو بشخص قاعد عند رأسه، فأدركه الوهم، فترك الجهة التي رأى فيها الشخص، وتحول إلى الجهة الأخرى، فلم يزل ينظره حتى أدرج الميت في كفنه، فعـاد إليه ذلك الشخص، فشاهده العالم وهو على النعش.

كما روي عن غير واحد من الصالحين أنه نادى ميتاً وهو في النعش: أين فلان، وأين الروح؟ فانتفض الكفن من تلقاء صدره مرتين أو ثلاثاً.

وعن الربيع بن خيثم أنه اضطرب في يد غاسله، وقد علم أن الميت تكلم في نعشه على عهد الصديق، وذكر فضله، وفضل الفاروق. وإنما هي النفس تشاهد أمراً ملكوتياً، ويكشف عن سمع من يشاء.

فإذا أدرج الميت في أكفانه صارت الروح ملتصقة بالصدر، خارجة ولها خوار وعجيج، وهي تقول: اسرعوا بي إلى ـ أي رحمة ـ ربي، لو علمتم ما أنتم حاملوني إليه.

فإن كان من يبشر بالشقاء، يقول: رويداً إلى ـ أي عذاب ـ ربي، لو تعلمون ما أنتم حاملوني إليه.

ولأجل ذلك كان رسول الله ﷺ لا يمر به جنازة إلا قام إليها قياماً.

وفي الصحيح: أنه ﷺ مرت به جنازة، فقام تعظيماً، فقيل: يا رسول الله إنه يهودي، فقال: «**أليست نفساً**».

وإنما كان يفعله لأنه كشف له عن أسرار الملكوت، فكان يسر بالميت إذا مر به لأنه من أهل فهمه ومعانيه.

**كلام القبر للميت:**

فإذا دخل الميت القبر، وأهيل عليه التراب ناداه القبر: كنت تفرح على ظهري، واليوم تحزن في بطني، كنت تأكل الألوان على ظهري، والآن تأكلك الديدان في بطني. ويكثر عليه مثل هذه الألفاظ الموبخة حتى يسوى عليه التراب[1].

**أول ما يلقى الميت في القبر:**

ثم يناديه ملك يقال له رومان. وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه[2]، أنه قال: يا رسول الله ما أول ما يلقى الميت إذا دخل قبره؟ قال: «**يا ابن مسعود ما سألني عنه أحد إلا أنت، فأول ما يناديه ملك اسمه رومان، يجوس خلال المقابر، فيقول: يا عبد الله اكتب عملك، فيقول: ليس معي دواة ولا قرطاس، فيقول: هيهات كفنك قرطاسك ومدادك ريقك، وقلمك إصبعك، فيقطع قطعة من كفنه، ثم يجعل العبد يكتب، وإن كان غير كاتب في الدنيا، فيكتب حينئذ حسناته وسيئاته كيوم واحد، ثم يطوي الملك الرقعة، ويعلقها في عنقه**».

ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه**﴾[3].

**سؤال منكر ونكير للمؤمنين:**

فإذا فرغ من ذلك دخل عليه فتانا القبر، وهما ملكان أسودان يخرقان الأرض

---

(١) انظر: (شرح الصدور ١١٢).

(٢) انظر: (المرجع السابق ١١٧).

(٣) سورة: الإسراء، الآية: ١٣.

بأنيابهما، لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض، كلاهما كالرعد القاصف، وأعينهما كالبرق الخاطف، ونفسهما كالريح العاصف، وبيد كل واحد منهما مقمع من حديد، لو اجتمع عليه الثقلان ما رفعاه، ولو ضرب به أعظم جبل لجعله دكاً.

فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة، فتدخل في منخر الميت فيحيا الميت من الصدر، ويكون كهيئته عند الغرغرة، ولا يقدر على حركة، غير أنه يسمع وينظر.

قال: فيسألانه بعنف وينهرانه بجفاء، وقد صار التراب له كالماء، حيثما تحرك انفتح فيه، ووجد فيه قرحة، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وما قبلتك؟

فمن وفقه الله وثبته بالقول الثابت، قال: من وكلكما علي، ومن أرسلكما إلي، ثم يقول: الله ربي، ومحمد نبيي، والإسلام ديني. وهذا ما يقوله إلا العلماء الأخيار.

فيقول أحدهما للآخر: صدق، لقد كفي شرنا، ولقن حجته. ثم يضربان عليه القبر كالقبة العظيمة، ويفتحان له باباً إلى الجنة من تلقاء يمينه، ثم يفرشان له من حريرها وريحانها، ويدخل عليه من نسيمها وروائحها، ويأتيه عمله في صورة أحب الأشخاص إليه يؤنسه، ويحدثه، ويملأ قبره نوراً، ولا يزال في فرح وسرور ما بقيت الدنيا حتى تقوم الساعة، فليس شيء أحب إليه من قيامها.

ودونه في المنزلة المؤمن القليل العمل والعلم، ليس معه حظه من العلم، ولا من أسرار الملكوت، يلج عليه عمله عقيب رومان في أحسن صورة طيبة الريح، حسن الثياب، فيقول له: أما تعرفني؟ فيقول: من أنت الذي منَّ الله عليَّ بك في غربتي؟ فيقول: أنا عملك الصالح، لا تحزن ولا توجل فعما قليل يلج عليك منكر ونكير يسألانك فلا تدهش. ثم يلقنه حجته.

فبينما هو كذلك إذ دخلا عليه - كما تقدم ذكرهما - فينهرانه، ويقعدانه مستنداً، ويقولان له من ربك، فيسبق إلى القول الأول، فيقول: الله ربي، ومحمد نبيي، والقرآن إمامي، والكعبة قبلتي، وإبراهيم أبي، وملته ملتي، غير مستعجم.

فيقولان له: صدقت، ويفعلان به كالأول. إلا أنهما يفتحان له باباً من النار من تلقاء شماله، فينظر إلى حياتها وعقاربها، وأغلالها وسلاسلها، وحميمها وجميع ما فيها من صديدها وزقومها. فيفزع، فيقولان له: لا عليك سوء،هذا موضعك كان من النار، قد أبدله الله تعالى به موضعك هذا من الجنة، نم سعيداً.

ثم يغلقان عنه باب النار، ولم يدر ما مر عليه من الشهور والأعوام والدهور.

ومن الناس من ينعجم في مسألته وإن كانت عقيدته مختلفة امتنع أن يقول الله ربي، وأخذ يذكر غيرها من الألفاظ، فيضربانه ضربة يشتعل قبره منها ناراً، ثم يطفأ عنه أياماً، ثم يشتعل عليه أيضاً، ثم دأبه ما بقيت الدنيا.

ومن الناس من يعتاص عليه ويعسر أن يقول: الإسلام ديني، بشك كان يتوهمه، أو فتنة تقع به عند الموت، فيضربانه ضربة واحدة، فيشتعل عليه قبره ناراً كالأول.

ومن الناس من يعسر عليه أن يقول: القرآن إمامي، لأنه يتلوه ولا يتعظ به، ولا يعمل بأوامره ولا ينتهي بنواهيه، يطوف عليه دهره، ولا يعظ نفسه خيره، فيفعل به ما فعل بالأولين.

ومن الناس من يستحيل عمله جرواً، يعذب به في قبره على قدر جرمه.

وفي الأخبار أن من الناس من يستحيل عمله خنّوصاً، وهو ولد الخنزير.

ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول: محمد نبيي؛ لأنه كان ناسياً لسنته.

ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول: الكعبة قبلتي، لقلة تحريه في صلاته، أو فساد وضوئه، أو التفات في صلاته، أو اختلال في ركوعه وسجوده. ويكفيك ما روي في فضائلها: «أن الله تعالى لا يقبل صلاة ممن عليه صلاة، ومن عليه ثوب حرام».

ومن الناس من يعتاص عليه أن يقول: أبي إبراهيم؛ لأنه سمع كلاماً يوماً أوهمه إبراهيم كان يهودياً، أو نصرانياً، فإذا هو شاب مرتاباً، فيفعل به ما فعل بالآخرين.

وهذه الأنواع كشفناها في كتاب الإحياء.

**سؤال منكر ونكير للفاجر:**

وأما الفاجر، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا عرفت، ثم يضربانه بتلك المقامع الحديد حتى يتجلجل في الأرض السابعة، ثم تنفضه الأرض في قبره، ثم يضربانه سبع مرات.

ثم تختلف أحوالهم، فمنهم من يستحيل عمله كلباً ينهشه حتى تقوم الساعة، وهم المرتابون. وهي أنواع تعتري أهل القبور، وإنما آثرنا الاختصار في ذكرها، وأصلها أن الرجل إنما يعذب في قبره بالشيء الذي كان يخافه في الدنيا، فمن الناس من يخاف الجرو أكثر. وطبائع الخلق مفترقة، نسأل الله السلامة والغفران قبل الندامة.

وقد روي عن غير واحد من الموتى أنه رئي في المنام، فقيل له: كيف كان حالك؟ فقال: صليت بلا وضوء، فوكل الله ذئباً يروعني في قبري، فحالي معه سوء حال.

وآخر رئي في المنام، فقال: ما فعل الله بك، فقال: إليك عني، فإني لم أتمكن في غسل يوم الجنابة، فألبسني الله ثوباً من نار أتقلب فيها إلى يوم القيامة.

ورئي آخر، فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: الغاسل الذي غسلني حملني بعنف، فخدشني مسمار كان في المغتسل قائماً، فتألمت منه، فلما أصبح الصباح، سئل الغاسل، فقال: كان ذلك من غير اختياري.

ورئي آخر في المنام، فقيل له: كيف حالك، أولم تمت؟ قال: نعم، وأنا بخير غير أن الحجر كسر ضلعي عندما سوي علي التراب، فأضرني، ففتح القبر فوجدوه كما قال.

وآخر جاء الى ولده في النوم فقيل له: يا ولد سوء، أصلح قبر أبيك لقد آذاه المطر، فلما أصبح بعث برجل إلى قبر أبيه فوجد جدولاً من الماء وقد أتى عليه من سيل، وإذا بالقبر مملوء من الماء.

وعن أعرابي أنه قال لولده: ما فعل الله بك؟ قال: ما ضرني إلا أن دفنت بإزاء فلان، وكان فاسقاً قد روعني ما يعذب به من أنواع العذاب.

وكثيراً ما جاء في مثل هذه الأخبار حكايات تبين أن أهل القبور يـألمون في قبورهم، وكفى بالخبر دلالة حيث يقول صاحب الشرع ﷺ: **«يؤلم الميت في قبره كما يؤلم الحي في بيته»**[1].

وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسر عظام الميت[2].

وقد مر برجل قاعد على فناء قبر فنهـاه، وقال: **«لا تؤذوا المـوتى في قبورهم»**[3].

وقد زار النبي ﷺ قبر أمه آمنة فبكى، وأبكى من كان معه، ثم قال: **«استأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي، ثم استأذنت أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت»**[4].

وكان إذا حضر إلى المقابر ليزورها يقول ﷺ: **«سلاماً على أهل الديار من**

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«عذاب القبر حق»**.
انظر: (صحيح البخاري، الباب ٨٧ من كتاب الجنائز. وسنن النسائي، الباب ٦٤ من كتاب السهو، ومسند أحمد بن حنبل ١٧٤/٦).

(٢) انظر: (سنن أبي داود، الباب ٦٠ من كتاب الجنائز. وسنن ابن ماجه، الباب ٦٣ من كتاب الجنائز. وموطأ مالك، الباب ٤٥ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ٥٨/٦، ١٠٠، ١٦٩، ٢٠٠، ٢٦٤).

(٣) انظر: (صحيح مسلم، حديث ٩٦ من كتاب المساجد، وسنن أبي داود، الباب ٧٣ من كتاب الجنائز. وسنن النسائي، الباب ١٠٥ من كتاب الجنائز. وسنن ابن ماجه، الباب ٤٥ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ٣١١/٢، ٣١٢، ٣٨٩، ٤٤٤، ٥٢٨. وحلية الأولياء ٣٨/٩).

(٤) انظر: (صحيح مسلم، حديث ١٠٥، ١٠٦ من كتاب الجنائز. وسنن أبي داود، الباب ٧٧ من كتاب الجنائز، وسنن النسائي، الباب ١٠١ من كتاب الجنائز. وسنن ابن ماجه، الباب ٤٧ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ٤٤١/٢).

**المسلمين والمؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط، ونحن لكم تبع، اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز بعفوك عنا وعنهم»**[1].

فكان يعلم نساءه ﷺ إذا خرج النساء إلى المقابر يقول لهن: قولوا هذا الكلام ويعلمهن إياه.

وقال صالح المزني: سألت بعض العلماء: لأي شيء نهي عن الصلاة في المقبرة، فقال: ورد حديث فاستدل بحديث: **«لا تصلوا بين القبور فإن ذلك حسرة لا منتهى لها»**[2].

وروي عن بعضهم أنه قال: قمت أصلي ذات يوم في المقابر وقد اشتد الحر وقوي، إذ رأيت شخصاً يشبه أبي جالساً على ظهر قبره فسجدت فزعاً، فسمعته يقول: ضاقت عليك الأرض رحباً حتى جئت تؤذينا بصلاتك، منذ زمان.

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ مر بيتيم يبكي على قبر أبيه فبكى رحمة له ثم قال: **«إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»**[3].

أي أن ذلك يحزنه ويسوؤه فكم من ميت رئي في المنام فقيل له: كيف حالك يا فلان؟ فيقول: حال سوء ساء حالي من فلان وفلانة كانا يكثران البكاء والنواح علي إلا أن الزنادقة ينكرون ذلك قبله.

ورسول الله ﷺ قال: **«ما من أحد منكم يمر بقبر أخيه المؤمن ممن يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه»**.

---

(١) انظر: (سنن النسائي، الباب ١٠٣ من كتاب الجنائز. وسنن ابن ماجه، الباب ٣٦ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ٥/٣٥٣، ٣٦٠، ٦/٧١).

(٢) انظر: (حلية الأولياء ٢/١٩. مجمع الزوائد ٢/٢٧).

(٣) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٣٢، ٣٣، ٤٥ من كتاب الجنائز، والباب ٨ من كتاب المغازي. وصحيح مسلم، الحديث ١٦، ١٧، ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٨ من كتاب الجنائز. وسنن أبي داود، الباب ٢٥ من كتاب الجنائز. وسنن الترمذي، الباب ٣٤ من كتاب الجنائز. وسنن النسائي، الباب ١٤، ١٥ من كتاب الجنائز. وسنن ابن ماجه، الباب ٥٤ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ١/٢٦، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥١، ٥٤، ٢/٦١، ٤/٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٥، ٤٣٧، ٥/١٠، ٦/٢٨١).

وكذا حدث عليه الصلاة والسلام وقد انصرف عن جنازة دفنوها أنه يسمع قرع نعالهم وهم بغيره أسمع وأسمع[1].

ومات بعض الفقهاء ولم يوص بشيء، ثم طاف على أهل بيته بالليل وقال: أعطوا فلاناً كيت وكيت من الزرع، وادفعوا لفلان كتابه الذي كان عندي مودعاً منذ زمان، فلما أصبحوا ذكر كل واحد منهم لأخيه ما رأى، ثم دفعوا الزرع، وطلبوا الكتاب فلم يجدوه فتعجبوا من ذلك ثم إنهم وجدوه بعد زمان في زوايا البيت.

وعن بعضهم قال: اتخذ أبونا لنا مؤدباً يعلمنا الكتابة في الدار فمات فخرجنا إلى قبره بعد ستة أيام وجعلنا نتذاكر أمر الله عز وجل فمر بنا طبق من تين فاشتريناه وأكلنا ورمينا الأذناب على القبر فلما كان تلك الليلة رأى أبونا الشيخ في المنام، فقال له: كيف حالك؟ فقال: بخير غير أن أولادك اتخذوا قبري مزبلة وتحدثوا علي بكلام هو كفر فخاصمنا أبونا للشيخ وقال إن الشيخ قال لي: إنهم قالوا: عند قبري شيئاً يشبه الكفر، فقلنا: يا سبحان الله لا يزال يؤدبنا في الدنيا والآخرة.

ومن هذه الحكايات كثير إلا أني ذكرت هذا القدر أمثالاً ومواعظ ليعتبر بالأقل.

***

(١) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٦٨، ٨٧ من كتاب الجنائز وسنن النسائي، الباب ٧٠ من كتاب الجنة. وسنن أبي داود، الباب ٧٤ من كتاب الجنائز، والباب ٢٤ من السنة. وسنن النسائي، الباب ١٠٨ ـ ١١٠ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ١٢٦/٣).

# فصـــل
# أحوال أهل القبور

وأما أهل القبور فعلى أربعة أحوال:

فمنهم القاعد على عقبه حتى تنتثر العين وتورم الجثة ويعود الجسم تراباً، ثم لا يزال بعد ذلك طوافاً في الملكوت دون سماء الدنيا.

ومنهم من يرسل الله عليه نعسه، فلا يدري ما فعل حتى ينتبه مع النفخة الأولى ثم يموت.

ومنهم من لا يقوم على قبره إلا شهرين أو ثلاثاً، ثم تركب نفسه على طير يهوي به في الجنة، وهو الحديث الصحيح حيث يقول صاحب الشرع ﷺ: «**نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة**»[1].

وفي المعنى الصحيح والوجه الحسن، وكذلك سئل عن أرواح الشهداء فقال: «**الشهداء في حواصل طيور خضر تعلق بهم في شجرة الجنة**»[2].

---

(1) انظر: (سنن النسائي، الباب ١١٧ من كتاب الجنائز، وسنن ابن ماجه، الباب ٢٢ من كتاب الزهد. وموطأ مالك، الباب ٤٩ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ٣/٤٥٥، ٤٥٦، ٤٦٠). وانظر أيضاً (شرح الصدور ١٨٧، ٢٣٠).

(2) انظر: (صحيح مسلم، الحديث ١٢١ من كتاب الإمارة، وسنن أبي داود، الباب ٢٥ من كتاب الجهاد. وسنن الترمذي، الباب ١٩، سورة ٣ من كتاب التفسير، الباب ١٣ من كتاب الجهاد. وسنن ابن ماجه، الباب ٤ من كتاب الجنائز. وسنن الدارمي، الباب ١٨ من كتاب الجهاد. ومسند أحمد بن حنبل ١/٢٦٦، ٦/٣٨٦).

ومن الناس من إذا بادت عينه عرج به إلى الصور، فَلا يزال لازماً له حتى ينفخ في الصور.

والنوع الرابع خص به الأنبياء والأولياء ولهم الخيار، فمنهم من يكون طوافاً في الأرض حتى تقوم الساعة، وكثيراً ما يرى في الليل، وأظن الصديق منهم والفاروق.

والرسول ﷺ له الخيار في طواف العوالم الثلاثة، وعن هذه الإرادة قال يوماً تنبيهاً، وإشارة ﷺ : **«إني أكرم على الله من أن يدعني في الأرض أكثر من ثلاث»**.

وكانت ثلاث عشرات؛ لأن الحسين قتل على رأس الثلاثين سنة، فغضب على أهل الأرض، وعرج إلى السماء وقد رآه بعض الصالحين في النوم، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما ترى في فتن أمتك؟ قال: زادهم الله فتنة قتلوا الحسين، ولم يحفظوني فيه. ثم جعل يعدد كلاماً اشتبه على الراوي.

منهم من اختار السماء السابعة؛ كإبراهيم عليه السلام، وفي الحديث: أنه مر به ﷺ وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور، وقد أحدق به أولاد المسلمين، وعيسى عليه السلام في السماء الخامسة، وفي كل سماء رسل وأنبياء، لا يخرجون منها ولا يبرحون حتى الصعقة. وليس منهم من له الخيار إلا الخليل، والكليم، والروح، والحبيب، هؤلاء ينتهون حيث أرادوا من العالمين.

وأما الأولياء؛ فمنهم من وقف على البعثة الدنيوية، كما روي عن أبي يزيد أنه تحت العرش يأكل من مائدة.

وعلى هذه الأنواع الأربعة حال أهل القبور، يعذبون، ويرحمون، ويهانون، ويكرمون؛ فالذين هم منهم يحدقون بالميت إذا احتضر حتى يضيق بهم رحاب المنازل، وربما كشف له فيراهم، ويفطن بهم.

وقد رأيت من حدث بهذا النوع. وقد رأيت بعض الأصحاب كشف عن بصيرته، فنظر إلى ولده الميت قد ولج البيت، والميت يفيق ويتصور.

وهذه الفوائد الملكوتية إنما تكون لكريم أو نسيب، نسأل الله أن يجود لنا

بمعرفة ما نخوض به بحر أسرارها حتى يرتفع الشك والارتياب.

ومع هذه الأنواع الموصوفة لا يعقل منهم تكوين الليل والنهار إلا من كان عينه باقية، لم يعرج به علواً، فمنهم من يعرف الجمعة والأعياد، وإذا خرج أحد من الدنيا اجتمعوا إليه وعرفوه، فهذا يسأل عن زوجته، وهذا يسأل عن والده، وكل واحد يسأل عن أربه.

وربما مات الميت فلم يلق أحد معارفه لزيغ يصيبه عند الموت، فيموت يهودياً أو نصرانياً، فيصير إلى عساكرهم، فإذا قدم أحد من الدنيا سأله جيرانه: ما علمك بفلان؟ فيقول لهم: قد مات، فيقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما رأيناه سلك به إلى أمة الهاوية.

وقد رئي بعض الناس، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أنا وفلان وفلان - وعد خمسة من أصحابه - في خير كثير ونعمة. وكان قتلة الخوارج مع أصحابه المعروفين، وسأل عن جار له: ما فعل الله به؟ فقال: ما رأيناه، وإنما كان هذا المنكور ألقى نفسه في اليم حتى مات غرقاً، وأظنه والله مع قاتلي أنفسهم.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ، قال: **«من قتل نفسه بحديدة جاء يوم القيامة وحديدته في يده، يتوجأ بها في بطنه في جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم... الحديث»**[1].

وكذلك المرأة تموت بحد، لا تزال تجد ذلك الألم حتى النفخة، فهذه حياة ثانية.

وقد صح أن آدم عليه السلام لقي موسى عليه السلام، فقال له: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، فلم عصيته؟ قال له: يا موسى نعم. فقال له: في كم سنة وجدت الذنب قدر عليَّ قبل

---

(1) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٨٤ من كتاب الجنائز، والباب ٥٦ من كتاب الطب. وصحيح مسلم، حديث ١٧٥ من كتاب الإيمان، الحديث ٧ من كتاب الطب. وسنن النسائي، الباب ٦٨ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ٢/٢٥٤، ٤٧٨، ٤٨٤).

فعله؟ قال له: كتب عليك قبل أن تفعله بخمسين ألف سنة، قال: يا موسى أفتلومني على ذنب قدر عليَّ قبل أن أفعله بخمسين ألف عام؟

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلَّى بالمرسلين ليلة أسري به ركعتين، وأنه سلم على هارون عليه السلام فدعا له بالرحمة ولأمته، وأنه سلم على إدريس فدعا له بالرحمة ولأمته، وكان أولئك قد ماتوا وبادت أعينهم، وإنما هي حياة الأنفس، وبعد هذا الإحياء حياة ثالثة. والحياة الأولية يوم أشهدهم على أنفسهم: **﴿ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا﴾**[1].

ولا يعتد بالحياة الدنيوية؛ فإنها مسخرة للتنعم، ويروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: **«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»**[2].

فهذه أحوال الأموات إذا بادت أعينهم: منهم المستقر، ومنهم الطواف، ومنهم المضروب عليه، ومنهم المعذب. والدليل على صحة ذلك قوله تعالى: **﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أَدْخِلوا آل فرعون أشد العذاب﴾**[3] واليوم بيان عذاب البرزخ.

* * *

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) هذا القول ليس من قول الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما هو من قول علي رضي الله عنه. فقد أورده السمهودي من الغماز على اللماز، ونقل عن السخاوي أنه من أقوال الإمام علي بن أبي طالب.

وكذا أورده السيوطي في الدرر المنتثرة، وقال العجلوني: ولكن عزاه الشعراني في الطبقات لسهل التستري، ولفظه في ترجمته: ومن كلامه: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وإذا ماتوا ندموا، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم».

انظر الحديث في: (المقاصد الحسنة ١٢٤٠، وأسنى المطالب ١٦٣٠، وكشف الخفا ٢٧٩٥، والأسرار المرفوعة للقاري ٥٥٥، وتمييز الطيب من الخبيث ١٥٢٨، والغماز على اللماز٧/٥٢. والدرر المنتثرة ٤٢٥).

(٣) سورة: غافر، الآية: ٤٦.

# فصــل
# في قيام الساعة

فإذا أراد الله تعالى قيام الساعة دون النفخ في الصور على السر الذي بيناه في الإحياء، فإذا الجبال تتطاير وتسير مثل السحاب، وإذا البحار قد تفجرت بعضها في بعض، وتكورت الشمس فعادت سوداء مزبرة، وسجرت الجبال على أمثال عالم الهواء، ودخل العالم بعضه في بعض، وانتثرت النجوم كالسلك إذا انتثر من نظمه، وعادت السماء كدهن الورد تدور كدوران الرحا، والأرض قد زلزلت زلزالاً شديداً، تارة تنقبض، وتارة تنبسط كالأديم، حتى ان الله يأمر بخلع الأفلاك، فلا يبقى في الأرضين السبع ولا السموات ولا في الكرسي حي كائن إلا وقد ذهبت نفسه، وإن كان روحانياً ذهبت روحه وقد خلت من عمارها، والسماء من سكانها على ضروب الموحدين.

ثم إن الله جل جلاله يتجلى في المقام، فيقبض السموات السبع في يمينه، والأرضين السبع في الأخرى، ثم يقول الله عزّ وجلّ: **«يا دنيا يا دنية، أين أربابك؟ أين أصحابك؟ منيتيهم ببهجتك، وشغلتيهم عن آخرتهم بزهوك»**..

**ثم يثني على نفسه بما شاء، ويفتخر بالبقاء المستمر، والعز الدائم، والملك الباقي، والقدرة القاهرة، والحكمة الباهرة.**

**ثم يقول تعالى: ﴿لمن الملك اليوم؟﴾، فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه بنفسه بأن يقول: ﴿لله الواحد القهار﴾.**

ثم يفعل فعلاً أعظم من الأول، وهو: أن يأخذ السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، ثم يهزها، ويقول سبحانه: **«أنا الملك الديان، أين عبدة**

**الأوثان الذين عبدوا غيري من دوني، وأشركوا بي، وأكلوا رزقي؟ أين الذين يقوون برزقي على المعاصي؟ أين الجبابرة؟ أين من تكبر وافتخر؟ لمن الملك اليوم»** كالمرة الأولى.

ثم يمكث كذلك سبحانه وتعالى ما شاء الله، وليس من العرش إلى المقام نسمة تلوح تعقل، وقد ضرب الله على آذان الحور والولدان في جنتهم.

ثم يكشف الله سبحانه وتعالى عن بئر في سقر، فيخرج منها لهيب النار، فتشتعل في الأربعة عشر بحراً، كما تشتعل النار في الصوف المنفوش، فما تدع منها قطرة واحدة، وتدع الأرضين جملة سوداء، والسموات كأنها عكر الزيت والنحاس المذاب، فإذا دنا اللهيب أن يتعلق بعنان السماء، زجر الله النار زجرة خمدت، ثم لا يرفع لها لهيب.

ثم يفتح الله سبحانه وتعالى خزانة من خزائن العرش فيها بحر الحياة، فتمطر الأرض فإذا هو كمني الرجال، فيلقى الأرض عطشى ميتة هامدة فتحيا وتهتز، ولا يزال المطر عليها حتى يعمها ويكون الماء أربعين ذراعاً، فإذا جاء الأجسام تنبت من العصعص.

وفي الحديث: «**إن الإنسان يبدأ من عجب الذنب ومنه يعود**»[1].

وفي رواية أخرى: «**يبلى المرء كله إلا عجب الذنب، منه بدىء، ومنه يعود**»[2].

وهو عظم على قدر الحمصة، ليس له مخ، فمنه تنبت الأجسام في مقابرها كما ينبت البقل، حتى يشتبك بعضها في بعض، فإذا رأس هذا عند منكب هذا، ويد هذا عند عجز هذا؛ لكثرة البشر.

---

(١)، (٢) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٣ من سورة ٣٩ من كتاب التفسير، وسنن أبي دا ، الباب ٢٢ من كتاب السنّة وسنن النسائي، الباب ١١٧ من كتاب الجنائز. وموطأ مالك، الباب ٤٩ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ٣/٢٨).

وفي معنى قوله عزَّ وجل: ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** ﴾[1]، نبهنا عليه في كتابنا الإحياء.

وإذا تمت النشأة على حسبها الصبي صبي، والشيخ شيخ، والكهل كهل، والفتى فتى، والشاب شاب، أمر الجليل جل جلاله أن تهب ريح من تحت العرش، فيها نار لطيفة، فيكشف ذلك عن الأرض، وتبقى الأرض بارزة ليس فيها حدب ولا عوج ولا أمت، وقد عادت الجبال رمالاً، وهو الكثيب المهيل.

ثم يحيي الله سبحانه وتعالى إسرافيل، فينفخ في الصور من صخرة ببيت المقدس، والصور قرن من نور له أربعة عشر دارة، الدارة الواحدة فيها ثقب بعدد أرواح البرية، فتخرج أرواح البرايا لها دوي كدوي النحل، فتملأ ما بين الخافقين، ثم تذهب كل نسمة إلى جثتها، فسبحان ملهمهم إياها، حتى الوحش والطير وكل ذي روح، فإذا الكل كما قال تعالى: ﴿**ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾[2].

والزجرة العظيمة هي الصيحة، كما قال تعالى: ﴿**فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة**﴾[3].

والساهرة هي الأرض السفلى؛ لأنهم فتحوا أبصارهم عند قيامهم، فنظروا إلى جبال منسوفة، وبحار منزوفة، والأرض لا عوج فيها ولا أمتاً.

والأمت: الشيء المرتفع كالربوة، والعوج: الأرض المنخفضة كالوهدة، والأودية، وإنما صارت مستوية كأنها صحفة قاعدة، فتعجبوا لما نظروا من الساهرة، وقعد كل واحد منهم على قبره عرياناً، منتظراً متعجباً متفكراً معتبراً، كما قال في الصحيح: «عراة غُرْلا»[4]. أي: غير مختونين.

---

(١) سورة: قٓ، الآية: ٤.

(٢) سورة: الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) سورة: النازعات، الآية: ١٣، ١٤.

(٤) انظر: (صحيح مسلم، الحديث ٥٦ من كتاب الجنة. وصحيح البخاري، الباب ٨، ٤٨ من كتاب الأنبياء، والباب ١٤، من سورة ٥، والباب ٢ من سورة ٢١، من كتاب التفسير. وسنن=

إلا قوماً ماتوا في الغربة مؤمنين لم يكفنوا، فإنهم يحشرون وقد كسوا ثياباً من الجنة، وأقواماً ماتوا شهداء فيقومون وقد كسوا من الجنة، وأقواماً أيضاً من أمة محمد ﷺ متحرين السنة ما خافوا عنها سم الخياط، فإن رسول الله ﷺ قال: «بالغوا في أكفان موتاكم، فإن أمتي تحشر بأكفانها وسائر الأمم عراة»[١]. رواه أبو سفيان مسنداً.

وقال ﷺ: «يحشر الميت في ثيابه»[٢].

وبعض الموتى لما احتضر، قال: اكسوني الثوب الفلاني، فمنع منه حتى مات في غلالة ليس عليه غيرها، فرئي في المنام بعد أيام قلائل كأنه حزين، فقيل له: ما بالك، فأعرض عن خطابه، ثم قال: منعتموني ثوبي، وجعلتموني أحشر في هذه الغلالة لا غير.

* * *

---

= الترمذي، الباب ٣ من كتاب القيامة، والباب ٢ من سورة ٨٠، من كتاب التفسير. وسنن النسائي، الباب ١١٨، ١١٩ من كتاب الجنائز. ومسند أحمد بن حنبل ١/٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٥، ٣٥٣، ٣/٤٩٥، ٦/٥٣).

(١)، (٢) الثابت في الصحيحين، أنه ﷺ، قال: «إنكم محشورون حفاة عراة...» الحديث. انظر: (صحيح البخاري، الباب ٨ من كتاب الأنبياء، والباب ١٤، ١٥ من سورة ٥ من كتاب التفسير، والباب ٤٥ من كتاب الرقاق. وصحيح مسلم، الحديث ٥٨ من كتاب الجنة. وسنن الترمذي، الباب ٣ من كتاب القيامة. وسنن النسائي، الباب ١١٩ من كتاب الجنائز ومسند أحمد ٥/٣).

# فصـــل
# في الإقامة التي بين النفختين

وهي الموتة الثانية؛ لأنها منعت من الحواس الباطنة، والموت الجسماني منع من الحواس الظاهرة؛ لأن الأجرام هي الفاعلة للحركة، ولأنهم لا يصلون، ولا يصومون، ولا هم يتعبدون، ولو أدخل الله ملكاً في جثة لأقام فيها، لأنه ذو حرص على التحيز إلى عالمه، والنفس جوهر بسيط، فإذا ركبت في الجسد صحت حياته وأفعاله.

واختلف الناس في هذه المدة الكائنة بين النفختين، واستقر الجمهور على أنها أربعون سنة، وحدثني من لا أشك في علمه ولا معرفته، أن أمر ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى؛ لأنه من أسرار الربوبية، وكذلك حدثني أن الاستثناء واقع عليه سبحانه وتعالى خاصة، فقلت: ما معنى قول النبي ﷺ: **«أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فإذا أخي موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أبعث قبلي أم كان ممن استثناه الله عز وجل»**[1].

فلا يخرج من هذا الحديث على ما نقدره إلا غير أجسام، وإن كان موسى الآن لاجثة له، وبعد الاستثناء الذي عن رسول الله ﷺ في أمر الفزع، لأن البرايا

---

(١) أخرج البزار، عن جابر بن عبد الله، أو غيره من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أول إفاقة فأرفع رأسي، فإذا برجل بيني وبين العرش، فقيل هو موسى ﷺ فان كان في الأرض فقد أفاق قبل»**. وقال الهيثمي: فيه مجالد بن سعيد، وهو مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

انظر: (مجمع الزوائد ١/٢٢٥، ٨/٢٠٥، ٢/٢٥٠، ١٠/٣٧٦).

عند الصعقة وعند الفزعة ـ كما قال كعب وقد حدث في مجلس عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عن هول المقام ـ حيث قال: فلو كان ذلك يـابن الخطاب عمل سبعين نبياً لظننت أنك لا تنجو من ذلك اليوم، إلا قوماً استثناهم الله من هول الفزع والصعق، وهم أهل المقام الرابع، لا شك أن موسى أحدهم، والاستثناء من بلوغ الأمر، ولو كان هناك أحد لأجاب الله تعالى حين يقول: لمن الملك اليوم؟ لقال: لك يا واحد يا قهار.

* * *

## فصـــل
## في أحوال الناس بعد النفخة الثانية

فإذا استوى كل أحد قاعداً على قبره، فمنهم العريان، والمكسو، والأسود، والأبيض، ومنهم من يكون له نور كالمصباح العظيم، ومنهم من يكون له نور كالشمس، إلا أن كل واحد منهم لا يزال مطرقاً برأسه، ما يدري ما يصنع ألف عام، حتى تظهر نار من المغرب لها دوي تسوق الخلق إلى المحشر، فيندهش لها رؤوس الخليقة إنساً وجناً، ووحشاً وطيراً، فيأخذ كل واحد عمله، ويقول: قم وانهض إلى المحشر.

فمن كان له حينئذ عمل جيد تشخص عمله بغلاً، ومنهم من تشخص عمله له حماراً، ومنهم من تشخص له عمله كبشاً تارة يحمله وتارة يلقيه، ويجعل لكل واحد نور شعاعي بين يديه، وعن يمينه مثله، يسري بين يديه في الظلمات، وهو قوله تعالى: ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾[1].

وليس عن شمائلهم نور، بل ظلمة حالكة، لا يستطيع أحد ينظر فيها، يحتار فيها الكفار، ويتردد المرتابون، والمؤمن ينظر إلى قوة حلكها وشدة حندسها، ويحمد الله على ما أعطاه من النور المهتدي به في تلك الشدة، ويسعى بين أيديهم، لأن الله يكشف للعبد المؤمن المتنعم عن أحوال أهل الشقاء المعذبين، ليستبين له سبل الفائدة، كما فعل أهل الجنة وأهل النار، حيث يقول: فاطلع فرآه في سواء الجحيم، وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **إذا صرفت أبصارهم تلقاء**

---

(١) سورة: التحريم، الآية: ٨.

**أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾**[1].

لأن أربعاً لا يعرف قدرها إلا أربعة: لا يعرف قدر الحياة إلا الموتى، ولا يعرف قدر الشدة إلا أهل النعم، ولا يعرف قدر الغنى إلا الفقراء، ولا يعرف قدر الصحة إلا المرضى.

ومن الناس من يسعى على قدميه، وعلى أطراف بنانه، ومنهم من له نور ينطفىء تارة ويشتعل تارة، وإنما نورهم عند البعث على قدر إيمانهم، وسرعة خطواتهم على قدر أعمالهم.

قيل لرسول الله ﷺ في حديث صحيح: كيف نحشر يا رسول الله؟ قال: **«اثنان على بعير، وخمسة على بعير، وعشرة على بعير»**[2].

ومعنى الحديث، والله أعلم: أن قوماً يتلاقون في الإسلام، فيرحمهم الله تعالى، خلق لهم من أعمالهم بعيراً يركبون عليه، وهذا من ضعف العمل؛ لأنهم مشتركون معهم، فهم كقوم خرجوا في سفر بعيد وليس معهم أحد منهم من يشتري مطية توصله، فاشترك في ثمنها رجلان أو ثلاثة، فاشتروا مطية يتعقبون عليها في الطريق، وقد يبلغ بعير مع عشرة، فهذا العجز في العمل معناه قبض اليد في المال ـ أي منع التصرف فيه ـ ومع هذا يحكم له بالسلامة.

فاعمل هداك الله عملاً يكون لك بعيراً خالصاً من الشركة، واعلم أن ذلك هو المتجر الرابح، فالمتقون وافدون كما قال الجليل جل جلاله: **﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾**[3].

وفي غريب الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: **«كان رجل من بني إسرائيل كثيراً ما يفعل الخير حتى إنه يحشر فيكم»**، قالوا له: وما كان يصنع؟ قال: **«ورث عن أبيه مالاً كثيراً فاشترى بستاناً فحبسه للمساكين وقال: هذا بستاني عند**

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٤٧.

(٢) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٤٥ من كتاب الرقاق. وصحيح مسلم، حديث ٥٩ من الجنة. وسنن النسائي، الباب ١١٨ من كتاب الجنائز).

(٣) سورة مريم: الآية: ٨٥.

**الله، وفرق دنانير عديدة في الضعفاء، وقال: بهذا أشتري جارية من الله تعالى وعبيداً، وأعتق رقاباً كثيرة، وقال: هؤلاء خدمي عند الله، والتفت ذات يوم إلى رجل ضرير البصر، فرآه تارة يمشي وتارة يكبو، فابتاع له مطية يسير عليها، وقال: هذه مطيتي عند الله تعالى أركبها. والذي نفسي بيده لكأني أنظر إليها وقد جيء بها سرجة ملجمة لأركبها في الموقف».**

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ **أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم** ﴾[1]، إنه مثل ضربه الله ليوم القيامة في حشر المؤمنين والكافرين، كما قال تعالى: ﴿ **ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً** ﴾[2]. أي: مشاة على وجوههم.

هذا قول بعض المفسرين، وليس الأمر كما حكاه، وإنما السر في ذلك أنه تارة يمشي، وتارة يكبو على وجهه. والذي تأوله بعيد؛ لأن الله تعالى ذكر الأرجل، فقال تعالى: ﴿ **وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾[3]، وقوله: ﴿ **عمياً وبكماً وصماً** ﴾[4]، غير المقصد الذي أرادوه، وترك الإشارة التي نبأك عليها. فقد رأيت العرب يتمثلون بها، ويقولون: هذا يمشي على وجهه، إذا كان يكبو، ومعناه: عمٍ عن النور الذي يشعشع بين أيدي المؤمنين، وعن أيمانهم، وليس العمى الكلي إرادتهم؛ لأنه لا خلاف أنهم ينظرون السماء تنشق بالغمام، والملائكة تنزل، والجبال تسير، والكواكب تنثر.

وكل أهوال القيامة تفسير قوله تعالى: ﴿ **أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون** ﴾[5].

فمعنى العمى في القيامة الخوض في الظلمة، والمنع عن النظر إلى الكريم،

---

(١) سورة: الملك، الآية: ٢٢.

(٢) سورة: مريم، الآية: ٨٦.

(٣) سورة: النور، الآية: ٢٤.

(٤) سورة: الإسراء، الآية: ٩٧.

(٥) سورة: الطور، الآية: ١٥.

إذ نور الله سبحانه وتعالى تشرق به الأرض البيضاء، وهم قد ضرب على أبصارهم غشاوة لا ينظرون إلى شيء من ذلك، كذلك ضرب على آذانهم، فلا يسمعون كلام الله والملائكة الذين ينادون: ﴿**لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون**﴾[1]، ﴿**ادخلوا الجنة * أنتم وأزواجكم تحبرون**﴾[2].

وكذلك منعوا من الكلام كأنهم بكم، يفسره قوله تعالى: ﴿**هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون**﴾[3].

والممنوع من الشيء موصوف بالضعف عن قدرته عليه، وإن كانت الصفة فيه موجودة كأنها معدومة الوجود في حال دون حال.

ومن الناس من يحشر بفتنته الدنيوية، فقوم مفتونون بالعود وعاكفون عليه دهرهم، فعند قيام أحدهم من قبره يأخذه بيمينه فيطرحه من يده، ويقول: سحقاً لك شغلتني عن ذكر الله، فيعود إليه ويقول: أنا صاحبك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

وكذلك يبعث السكران سكراناً، والزامر زامراً، وكل أحد على الحال الذي صده عن سبيل الله، ومثله الحديث الذي روي في الصحيحين: «**إن شارب الخمر يحشر والكوز معلق في عنقه، والقدح بيده، وهو أنتن من كل جيفة على الأرض يلعنه كل من يمر عليه من الخلق**»[4].

والميت أيضاً يحشر بظلامته، وفي الصحيح: «**ان المقتول في سبيل الله يأتي يوم القيامة وجرحه يشجب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، حتى يقف بين يدي الله عز وجل**»[5].

فإذا ساقتهم الملائكة زمراً وأفواجاً، تحت كل واحد ما قدر له، وجمعوا في

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٤٩.

(٢) سورة: الزخرف، الآية: ٧٠.

(٣) سورة: المرسلات، الآية: ٣٥، ٣٦.

صعيد واحد من إنس، وجن، وشيطان، ووحش، وسبع، وطير، تحولهم الملائكة إلى الأرض الثانية، وهي أرض بيضاء من فضة نورية، وصارت الملائكة من وراء العالمين حلقة واحدة، فإذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات.

ثم إن الله سبحانه وتعالى يأمر ملائكة السماء الثانية، فيحدثون حلقة واحدة، فإذا هم مثلهم عشرين مرة.

ثم تنزل ملائكة السماء الثانية، فيحدثون بالكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستين مرة.

ثـ، دزل، ملائكة السماء السابعة، فيحدثون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ،سبعين مرة.

والخلق تتـاخل ويندرج بعضهم في بعض حتى يعلو ألف قدم لشدة الزحام، ويخوض الناس في العرق على أنواع مختلفة إلى الآذان، وإلى الصدر، وإلى الحلقو، ،وإلى المـكبين، وإلى الركبتين، ومنهم من يصيبه الرشح اليسير، كالقاعد في الحمام، ومنهم من يصيبه البلل كالعطش إذا شرب الماء، وأصحاب الرأي هم الكراسي، وأصحاـ الكعبين قوم يموتون غرقى، والملائكة تناديهم لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

وحدثني بعض العارفين أنهم الأوابون، كالفضيل بن عياض، وغيره.

إذ النبي ﷺ، قال: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، والطبراني في المعجم الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والقضاعي في الشهاب، ورجاله ثقات، إلاَّ أنه منقطع، لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.

وللحديث شواهد ذكرها السخاوي في مقاصده منها ما رواه أبو نعيم في الحلية، عن ابن أبي سعيد الأنصاري، عن أبيه بلفظ: «الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وسنده ضعيف».

انظر الحديث في: (سنن ابن ماجه ٤٢٥٠، والمعجم الكبير للطبراني ١٠٢٨١، وحلية الأولياء ٤/٢١٠، ١٠/٣٩٨، والأحاديث الضعيفة للألباني ٢/٨٣، والمقاصد الحسنة ٣١٣. والشهاب ١٠٨).

فإن دليل ذلك قول مطلق.

وهذه الأصناف الثلاثة: أهل الرأي، والرشح، وأهل الكعب، هم الذين تبيضّ وجوههم، ومن دونهم تسود وجوههم.

وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق، وقد قربت الشمس من رؤوسهم، حتى لو أن أحداً مد يده يضاعف حرها سبعين مرة.

وقال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض، وأذابت الصخر، ونشفت الأنهار.

فبينما الخلائق يمرحون وهم في تلك الأرض البيضاء التي ذكرها الله تعالى، حيث يقول: ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات**﴾[1]، وبرزوا لله الواحد القهار، وهم على أنواع في المحشر، وملوك أهل الدنيا كالذر، كما روي في الخبر في صفة المتكبر، وليس هم كهيئة الذر عيناً، غير أن الأقدام تطأ عليهم، حتى صاروا كالذر في مذلتهم وانخفاضهم.

وقوم يشربون ماءً عذباً صافياً؛ لأن الصبيان يطوفون على آبائهم بكؤوس من أنهار الجنة يسقونهم.

وعن بعض السلف الصالحين أنه نام فرأى القيامة قد قامت وكأنه في الموقف عطشان، ورأى صبياناً صغاراً يسقون الناس. قال: فناديتهم: ناولوني شربة ماء، فقال لي واحد منهم: ألك فينا ولد؟ قلت: لا، قال: فلا إذاً. وفي هذا فضل التزويج، ولهذا الولد الساقي شروط ذكرناها في كتابنا الإحياء.

وقوم قد دنا على رؤوسهم ظل يمنعهم من الحر، وهي الصدقة الطيبة. ولا يزالون كذلك ألف عام حتى إذا سمعوا نقر الناقور ـ الذي وصفناه في كتابنا الإحياء ـ وهو من بعض أسرار القرآن، فتوجل له القلوب، وتخشع له الأبصار لعظم نقره، وتساق الرؤوس من المؤمنين والكافرين، يظنون ذلك عذاباً يزداد في هول القيامة.

---

(١) سورة: إبراهيم، الآية: ٤٨.

فإذا بالعرش يحمله ثمانية أملاك يسير قدم الملك منهم مسيرة عشرين ألف سنة، وأفواج الملائكة وأنواع الغمام بأصوات التسبيح لا يطيقه العقول، حتى يستقر العرش في تلك الأرض البيضاء التي خلقها الله تعالى لهذا الشأن خاصة، فتطرق الرؤوس وتحصر وتنحبس، وتشفق البرايا، وترعب الأنبياء، وتخاف العلماء، وتفزع الأولياء والشهداء من عذاب الله الذي لا يطيقه شيء.

فبينما هم كذلك إذ غشيهم نور غلب على نور الشمس التي كانوا في حرها، فلا يزالون يموج بعضهم في بعض ألف عام، والجليل لا يعلمهم كلمة واحدة.

* * *

## الاستشفاع بالرسل عليهم السلام

فحينئذ تذهب الناس إلى آدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم يا أبا البشر، الأمر علينا شديد ـ وأما الكافر، فيقول: يا رب ارحمني ولو إلى النار، من شدة ما يرى من الهول ـ ويقولون: يا آدم، أنت الذي خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته من روحه، اشفع لنا في فصل القضاء، فيؤمر بكل حيث يشاء سبحانه وتعالى فيفعل بهم ما يشاء. فيقول: عصيت الله حيث نهاني عن أكل الشجرة، وأنا أستحي أن أكلمه في هذه الحالة، ولكن اذهبوا إلى نوح عليه السلام، فإنه أول المسلمين.

فيقيمون ألف عام يتشاورون فيما بينهم، ثم يذهبون إلى نوح، فيقولون له: أنت أول المرسلين، فيذكرون له مثل ذلك، ثم يطلبون منه الشفاعة في فصل القضاء بينهم، فيقول: إنني دعوت دعوة أغرقت بها أهل الأرض، وإني أستحي من الله تعالى أن أسأله مثل ذلك، ولكن انطلقوا إلى إبراهيم خليل الله تعالى، وهو سماكم المسلمين من قبل، فلعله يشفع لكم.

فيتشاورون فيما بينهم ألف عام، ثم يأتونه عليه السلام فيقولون له: يا إبراهيم يا أبا المسلمين، أنت الذي اتخذك الله خليلاً فاشفع لنا إلى الله لعله يفصل فيما بين خلقه. فيقول لهم: إني كذبت في الإسلام ثلاث كذبات، جادلت بهن عن دين الله، فأنا أستحي من الله أن أسأله الشفاعة في مثل هذا المقام، ولكن اذهبوا إلى موسى عليه السلام فإنه اتخذه الله كليماً، وقربه نجياً، عسى أن يشفع لكم.

فيتشاورون فيما بينهم ألف عام، والحال يزيد شدة، والموقف ضيقاً، فيأتون موسى، فيقولون له: يابن عمران، أنت الذي اتخذك الله

كليماً، وقربك نجياً، وأنزل إليك التوراة، فاشفع لنا في فصل القضاء، فقد طال المقام، واشتد الزحام، وتراكمت الأقدام، ونادى أهل الكفر والإسلام من طول المقام. فيقول لهم موسى: إني سألت الله تعالى أن يأخذ آل فرعون بالسنين، وأن يجعلهم مثلاً للآخرين؛ وأنا أستحي من الله تعالى أن أسأله شفاعة في مثل هذا المقام، مع أسباب جرت بيني وبينه في المناجاة يلوح فيها تعريض الهلاك إلا أنه ذو رحمة واسعة، ورب غفور، لكن اذهبوا إلى عيسى عليه السلام، فإنه من أصح المرسلين يقيناً، وأكثرهم معرفة بالله تعالى، وأشدهم زهداً، وأبلغهم حكمةً، فلعله يشفع لكم.

فيتشاورون فيما بينهم ألف عام، والحال يزيد شدة، والموقف يزداد ضيقاً، وهم يقولون: حتى متى نحن من رسول إلى رسول، ومن كريم إلى كريم؟ فيأتون عيسى عليه السلام، فيقولون له: أنت روح الله وكلمته، وأنت الذي سماك الله وجيهاً في الدنيا والآخرة، اشفع لنا إلى ربك في فصل القضاء، فيقول: إن قومي اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله، فكيف أشفع عند من عبدت من معه، وسميت له ابناً، وسمي لي أباً، ولكن أرأيتم لو كان لأحدكم كيس فيه نفقة، وعليه خاتم، أكان يبلغ إلى ما في الكيس حتى يفض الخاتم؟ قالوا: نعم يا نبي الله، قال لهم: اذهبوا إلى سيد المرسلين، وخاتم النبيين، أخي العرب، فإنه ادخر دعوته شفاعة لأمته، وكثيراً ما آذاه قومه؛ شجوا جبينه، وكسروا رباعيته، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، وإنه لأحسنهم فخاراً وأكبرهم شرفاً، وهو يقول كما قال الصديق لإخوته: لا تثريب عليكم، اليوم يغفر لكم وهو أرحم الراحمين. وجعل يتلو عليهم من فضائله ﷺ ما لم تمجه آذانهم، حتى امتلأت نفوسهم حرصاً على الذهاب إليه.

فساروا حتى أتوا منبره ﷺ، وقالوا له: أنت حبيب الله، والحبيب أوجه الوسائط، اشفع لنا إلى ربك، فقد ذهبنا إلى أبينا آدم فأحالنا على نوح، فذهبنا إلى نوح فأحالنا على إبراهيم، وذهبنا إلى إبراهيم فأحالنا على موسى، فذهبنا إلى موسى فأحالنا إلى عيسى، وذهبنا إلى عيسى فأحالنا عليك صلَّى الله عليك وسلم، وليس بعدك مطلب، ولا عنك مهرب. فيقول ﷺ: **«أنا لها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى»**.

ثم ينطلق ﷺ إلى سرادقات الجلال فيستأذن، فيؤذن له، ثم يرفع الحجاب ويلج إلى العرش ويخر ساجداً يمكث فيها ألفاً، ثم يحمد الله تعالى بمحامد ما حمده بها أحد قط.

قال بعض العارفين: إن تلك المحامد التي أثنى الله بها على نفسه يوم فراغه من خلقه.

فيتحرك العرش تعظيماً، وقد حاز صحيفة من الصحف التي قدم ذكرها في الإحياء، والناس في تلك المدة قد ضاق مكانهم، وساءت أحوالهم، وتراودت أهوالهم، وقد طوق كل واحد منهم ما بخل به في الدنيا؛ فمانع زكاة الإبل يحمل بعيراً على كاهله له رغاء[1] وثقل يعدل الجبل العظيم، والرغاء والخوار كالرعد القاصف.

ومانع زكاة الزرع يحمل على كاهله أعدالاً قد ملئت من الجنس الذي كان يبخل؛ براً كان أو شعيراً ثقل ما يكون، ينادي تحته بالويل والثبور.

ومانع زكاة المال يحمل شجاعاً أقرع له زبيبتان، وذنبه قد صب في منخره واستدار بجيده وثقل على كاهله، حتى كأنه طوق به كل رحى في الأرض.

وكل واحد ينادي: ما هذا؟ فتقول لهم الملائكة: هذا ما بخلتم به رغبة فيه، وشحاً عليه، وهو قوله تعالى: ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾[2].

وآخرون قد عظمت فروجهم وهي تسيل صديداً تتأذى بنتنهم جيرانهم، وآخرون قد صلبوا على جذوع النيران، وآخرون قد خرجت ألسنتهم على صدورهم أقبح ما يكون؛ وهم الزناة واللاطة والكاذبون. وآخرون قد عظمت بطونهم كالجبال والرواسي، وهم آكلو الربا. وكل ذنب قد بدا سوء ذنبه ظاهراً عليه.

* * *

(1) هذه إشارة إلى حديث أخرجه البخاري في صحيحه، الباب ١٥ من الحيل، والباب ٣ من الزكاة، والباب ٣ من الأعيان، وسنن النسائي، الباب ٦ من كتاب الزكاة، وسنن الدارمي، الباب ٣١ من الزكاة).

(2) سورة: آل عمران، الآية: ١٨٠.

# فصــل
# في شفاعة الرسول ﷺ

فينادي الجليل جل جلاله: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك، واشفع تشفع. فيقول ﷺ: **يا رب، افصل بين عبادك، فقد طال مقامهم، وقد أفصح كل واحد بذنبه في عرصات يوم القيامة فيأتي النداء: نعم يا محمد.**

ويأمر الله بالجنة فتزخرف، ويؤتى بها ولها نسيم طيب أعبق ما يكون وأزكى، فيوجد ريحها مسيرة خمسمائة عام، فتبرد القلوب، وتحيا النفوس إلا من كانت أعمالهم خبيثة فإنهم منعوا من ريحها، فتوضع عن يمين العرش.

ثم يأمر الله تعالى أن يؤتى بالنار، فترعب وتفزع، وتقول للمرسلين إليها من الملائكة: أتعلمون أن الله خلق خلقاً يعذبني. فيقولون: لا وعزته، وإنما أرسل إليك لتنتقمي من عصاة ربك، ولمثل هذا اليوم خلقت، فيأتون بها تمشي على أربع قوائم، تقاد بسبعين ألف زمام في كل زمام سبعون ألف حلقة، لو جمع حديد الدنيا كله ما عدل منها حلقة واحدة، على كل حلقة سبعون ألف زباني، لو أمر زباني منهم أن يدك الجبال لدكها، وأن يهد الأرض لهدها.

وإذا لها شهيق ودوي وشرر ودخان تفور حتى تسد الأفق ظلمة، فإذا كان بينها وبين الخلق مقدار ألف عام انفلتت من أيدي الزبانية حتى تأتي إلى أهل الموقف ولها صلصلة وتصفيق وسحيق. فيقال: ما هذا؟ فيقال: جهنم انفلتت من أيدي سائقيها، ولم يقدروا على إمساكها لعظم شأنها.

فيجثو الكل على الركب حتى المتوسلون، ويتعلق إبراهيم وموسى وعيسى

بالعرش، هذا قد نسي الذبيح، وهذا قد نسي هارون، وهذا قد نسي مريم، ويجعل كل واحد منهم يقول: يا رب، نفسي لا أسألك اليوم غيرها ـ وهو الأصح عندي ـ ومحمد عليه الصلاة والسلام يقول: أمتي أمتي، سلمها ونجها يا رب.

وليس في الموقف من تحمله ركبتاه، وهو قوله تعالى: ﴿ **وترى كل أمة جاثية** ﴾[1]. كل أمة تدعى إلى كتابها. وعند تفلتها تكبو من الحنق والغيظ، وهو قوله تعالى: ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً** ﴾[2]، أي: تعظيماً وحنقاً، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ **تكاد تميز** ﴾[3]، أي: من شدة غيظها.

فيبرز ﷺ ويأخذ بخطامها، ويقول لها: ارجعي مدحورة إلى خلفك حتى تأتيك أفواجك، فتقول: خل سبيلي، فإنك يا محمد حرام.

فينادي مناد من سرادقات العرش: اسمعي منه وأطيعي له. ثم تجذب وتجعل عن شمال العرش، ويتحدث أهل الموقف بجذبها، فيخف وجلهم، وهو قوله تعالى: ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين** ﴾[4].

فهنالك ينصب الميزان، وهو كفتان: كفة من نور عن يمين العرش، وكفة عن يساره من ظلمة، ثم يكشف الجليل عن ساقه، فيسجد الناس تعظيماً له وتواضعاً إلا الكفار؛ فإن أصلابهم تعود حديداً فلا يقدرون على السجود، وهو قوله تعالى: ﴿ **يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾[5]

وروى البخاري في تفسيره مسنداً إلى رسول الله ﷺ، قال: «**يكشف الله عن ساقه يوم القيامة، فيسجد كل مؤمن ومؤمنة**».

وقد أشفقت من تأويل الحديث وعدلت عن منكريه، وكذا أشفقت من ذكر

---

(١) سورة: الجاثية، الآية: ٢٨.

(٢) سورة: الفرقان، الآية: ١٢.

(٣) سورة: الملك، الآية: ٨.

(٤) سورة: الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٥) سورة: القلم، الآية: ٤٢.

صفة الميزان، وزيفت قول واضعيه بالمثل، وجعلته محيزاً إلى العالم الملكوتي، فإن الحسنات والسيئات أعراض، ولا يصح وزن الأعراض إلا بالميزان الملكوتي.

فبينما الناس ساجدون إذ نادى الجليل بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان ـ كما حكاه البخاري[1] ـ لا يجاوزني ظلم ظالم، فإن جاوزني فأنا الظالم.

ثم يحكم بين البهائم، ويقتص للجماء من القرناء، ويفصل بين الوحش والطير، ثم يقول لها: كوني تراباً، فتسوى بها الأرض، ويتمنى الكافر، فيقول: يا ليتني كنت تراباً.

---

(١) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٣٢ من كتاب التوحيد. ومسند أحمد بن حنبل ٤٩٥/٣).

## أحوال الرسل عليهم السلام يوم الحساب

ثم يخرج النداء من قبل الله: أين اللوح المحفوظ؟ فيرى به هوج عظيم، فيقول الله: أين ما سطرت فيك من توراة وإنجيل وفرقان، فيقول: سلبني الروح الأمين.

فيؤتى به يرعد، وتصطك ركبتاه، فيقول الله: يا جبريل، هذا اللوح يزعم أنك نقلت منه كلامي ووحيي، أصدق؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول له: فما فعلت فيه؟ فيقول: أنهيت التوراة إلى موسى، والإنجيل إلى عيسى، والفرقان إلى محمد ﷺ، وأنهيت إلى كل رسول رسالته، وإلى أهل الصحف صحائفهم.

فإذا بالنداء: يا نوح، فيؤتى به يرعد وتصطك فرائصه، فيقول له: يا نوح، زعم جبريلٍ أنك من المرسلين، قال: صدق، فيقول له: ما فعلت مع قومك؟ قال: دعوتهم ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً. فإذا بالنداء، يا قوم نوح، فيؤتى بهم زمرة واحدة، فيقال: هذا أخوكم نوح يزعم أنه بلغكم الرسالة، فيقولون: يا ربنا، كذب ما بلغنا من شيء، وينكرون الرسالة، فيقول الله: يا نوح ألك بينة عليهم، فيقول: نعم يا رب، بينتي عليهم محمد وأمته.

فيؤتى بالنبي ﷺ، فيقول الله عز وجل: يا محمد، هذا نوح يستشهدك، فيشهد له بتبليغ الرسالة، ويقرأ ﷺ: ﴿**إنا أرسلنا نوحاً**. . . ﴾[1] إلى آخرها. فيقول الجليل: قد وجب عليكم الحق، وحقت عليكم كلمة العذاب فقد حقت على الكافرين. فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار من غير وزن عمل ولا حساب.

---

(١) سورة: نوح، الآية: ١.

ثم ينادى أين عاد؟ فيفعل قوم هود مع هود كما فعل مع نوح، فيشهد عليهم النبي وخيار أمته، فيتلو: ﴿ كذبت عاد المرسلين... ﴾[1]. فيؤمر بهم إلى النار.

ثم ينادى: يا صالح، ويا ثمود. فيأتون فيستشهدون، فعندما ينكرون يأتي النبي ﷺ، فيتلو: ﴿ كذبت ثمود المرسلين... ﴾[2] إلى آخر القصة. فيفعل بهم مثلهم.

ولا يزال يخرج أمة بعد أمة، قد أخبر عنهم القرآن بياناً، وذكرهم فيه إشارة، كقوله تعالى: ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾[3].

وقوله: ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاءت أمة رسولها كذبوه ﴾[4].

وقوله: ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم ﴾[5].

وفي هذا تنبيه على أولئك القرون الطاغية، كقوم يارخ، ومارخ، ودوح، وأسر، وما أشبه ذلك، حتى ينتهي النداء إلى أصحاب الرس، وتبَّع، وقوم إبراهيم. وفي كل ذلك لا يزوج ـ أي: يرتفع ـ لهم ميزان، ولا توضع لهم حساب، وهم عن ربهم يومئذ محجوبون، والترجمان يكلمهم؛ لأن من نظر إليه الله وكلمه لم يعذب.

ثم ينادى بموسى، فيأتي وهو كأنه ورقة في ريح عاصف، فيقول له: يا موسى، إن جبريل زعم أنك بلغت الرسالة والتوراة، فتشهد له بالبلاغ، قال: نعم، قال: فارجع إلى منبرك، واتل ما أوحي إليك. فيرقى المنبر ويقرأ، فينصت كل من في الموقف، فيأتي بالتوراة غضة طرية على حسبها يوم أنزلت، حتى يتوهم الأخيار أنهم ما عرفوها يوماً.

ثم ينادى يا داود، فيأتي وهو يرعد كأنه ورقة في ريح عاصف، ويقول جل ثناؤه: يا داود، زعم جبريل أنه بلغك الزبور، فتشهد له بالبلاغ، فيقول: نعم يا

---

(١) سورة: الشعراء، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة: الشعراء، الآية: ١٤١.

(٣) سورة: الفرقان، الآية: ٣٨.

(٤) سورة: المؤمنون، الآية: ٤٤.

(٥) سورة: إبراهيم، الآية: ٩.

رب، فيقول له: ارجع إلى منبرك واتل ما أوحي إليك، فيرقى ويقرأ، وهو أحسن صوتاً. وفي الصحيح أنه صاحب مزامير الجنة. فيسمع صوته أمام تابوت السكينة، فيقتحم الجموع، ويتخطى الصفوف حتى يصل إلى داود، فيتعلق به، فيقول: أما وعظك الزبور حتى نويت لي شراً، فيخجله ويسكته مفحماً. فيرتج الموقف لما يرى الناس من شأن داود عليه السلام.

ثم يتعلق به، فيسوقه إلى الله، فيرخى عليهم الستر، فيقول: يا رب انصفني منه، فإنه تعمدني بالهلاك وجعلني أقاتل حتى قتلت، وتزوج امرأتي، وعنده يومئذ تسع وتسعون، فيلتفت الجليل إلى داود، فيقول له: أصدق فيما يقول؟ فيقول له: نعم يا رب، وهو منكس رأسه حياء وتوقعاً لما ينزل به من العذاب، ورجاء فيما وعده الله من المغفرة، فكان إذا خاف نكس رأسه، وإذا طمع ورجا رفعه، فيقول الله تعالى: قد عوضتك عن ذلك كذا وكذا من القصور والولدان، فيقول: رضيت يا رب، ثم يقول لداود: اذهب قد غفرت لك.

وكذا شأنه سبحانه وتعالى مع من أكرمه يعطي عنه من سعة رفده، وعظيم عفوه، ثم يقول له: ارجع إلى منبرك واقرأ بما بقي من الزبور. فيفعل حينئذ، فيؤمر بني إسرائيل أن ينقسموا قسمين: قسم مع المؤمنين، وقسم مع المجرمين.

ثم ينادي المنادي: أين عيسى ابن مريم؟ فيؤتى به، فيقول له: أنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله، فيحمد ما شاء الله ويثني عليه كثيراً، ثم يعطف على نفسه بالذم والاحتقار، ويقول: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب. فيضحك الله تعالى، ويقول: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. صدقت يا عيسى، ارجع إلى منبرك واتل الإنجيل الذي بلغك جبريل، فيقول: نعم. ثم يقرأ، فتشخص إليه الرؤوس من حسن ترديده وترجيعه، فإنه أحكم الناس به رواية، فيأتي به غضاً طرياً حتى يظن الرهبان أنهم ما علموا منه آية قط، ثم ينقسم النصارى فرقتين: المجرمون مع المجرمين، والمؤمنون مع المؤمنين.

ثم يخرج النداء: أين محمد؟ فيؤتى به ﷺ، فيقول له: يا محمد، هذا

جبريل يزعم أنه بلغك القرآن، فيقول: نعم يا رب، فيقال له: ارجع إلى منبرك واقرأ، فيتلو ﷺ القرآن، فيأتي به غضاً طرياً، عليه حلاوة يستبشر بها المتقون، وإذا وجوههم ضاحكة مستبشرة، والمجرمون وجوههم مغبرة.

ويستدل على السؤال المتقدم للرسل والأمم بقوله تعالى: ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾[1].

وقيل بقوله تعالى: ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾[2].

والأول أصح ـ حكيناه في الإحياء ـ لأن الرسل يتفاضلون، والمسيح عليه السلام من أجلهم؛ لأنه روح الله وكلمته.

فإذا تلا النبي ﷺ القرآن توهمت الأمة أنهم ما سمعوه قط. وقد قالوا للأصمعي: تزعم أنك أحفظهم لكتاب الله تعالى، قال: يا ابن أخي، يوم أسمعه من النبي ﷺ كأني ما سمعته قط.

* * *

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٦.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ١٠٩.

# يــوم الفــزع الأكبــر

فإذا فرغت قراءة الكتب، خرج النداء من قبل سرادقات الجلال: وامتازوا اليوم أيها المجرمون.

فيرتج الموقف، ويقوم فيه روع عظيم. والملائكة قد امتزجت بالجن، والجن ببني آدم، ولج الكل لجة واحدة.

ثم يخرج النداء: يا آدم ابعث من بنيك بعثاً إلى النار. فيقول: كم يا رب؟ فيقول له: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فلا يزال يستخرج من سائر الملحدين والغافلين والفاسقين حتى لا يبقى إلا قدر حفنة الرب، كما قال الصديق: نحو حفنة من حفنات الرب.

ثم يقرب اللعين بالشياطين، فمنهم من يزيغ له الميزان، فإذا سيئاته ترجح على حسناته. وكل من وصلت له الشريعة لا بد له من الميزان، فإذا اعتزلوا وأيقنوا أنهم هالكون، قالوا: آدم ظلمنا ومكن الزبانية من نواصينا، فإذا النداء من قبل الله تعالى: لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب.

فيستخرج لهم كتاب عظيم يسد ما بين المشرق والمغرب، فيه جميع أعمال الخلائق، فما من صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها الله، ولا يظلم ربك أحداً. وذلك أن أعمال الخلائق كل يوم تعرض على الله، فيأمر الكرام البررة أن ينسخوها في ذلك الكتاب العظيم، وهو قوله تعالى: ﴿ **إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾[1].

---

(١) سورة: الجاثية، الآية: ٢٩.

ثم ينادى بهم فرداً فرداً، فيحاسب كل واحد منهم، فإذا الأقدام تشهد، واليدان تشهدان، وهو قوله تعالى: ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾[1].

وقد جاء في الخبر: أن رجلاً منهم يوقف بين يدي الله تعالى، فيقول له: يا عبد السوء، كنت مجرماً عاصياً، فيقول: ما فعلت. فيقال له: عليك بينة، فيؤتى بحفظته، فيقول: كذبوا عليّ، ويجادل على نفسه، وهو قوله تعالى: ﴿ **يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها** ﴾[2].

ويختم على فيه، وهو قوله تعالى: ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾[3].

فتشهد جوارحه عليه، فيؤمر به إلى النار، فيجعل يلوم جوارحه، فتقول له: ليس عن اختيارنا، أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء.

ثم يدفعون بعد الفراغ إلى خزنة جهنم، فترتج أصواتهم بالبكاء والضجيج، ويكون لهم رجة عظيمة حين يعرض الموحدون المؤمنون، فتحدق بهم الملائكة تلقى كل واحد منهم، يقول: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

والفزع الأكبر في أربعة مواضع: عند نقر الناقور، وعند تفلت جهنم من الخزنة، وعند إخراج بعث آدم، وعند دفعهم إلى الخزنة.

* * *

---

(١) سورة: النور، الآية: ٢٤.

(٢) سورة: النحل، الآية: ١١١.

(٣) سورة: يس، الآية: ٦٥.

# تجلي الله سبحانه وتعالى للمؤمنين
# وجوازهم الصراط

فإذا بقي الموقف ليس فيه إلا المؤمنون، والمسلمون المحسنون، والعارفون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، والمرسلون. ليس مرتاب ولا منافق ولا زنديق.

فيقول الله تعالى: يا أهل الموقف، من ربكم؟ فيقولون: الله، فيقول لهم: تعرفونه؟ فيقولون: نعم. فيتجلى لهم ملك عن يسار العرش لو جعلت البحار السبعة في نقرة إبهامه ما ظهرت. فيقول لهم: أنا ربكم بأمر الله، فيقولون: نعوذ بالله منك، فيتجلى لهم ملك عن يمين العرش، لو جعلت البحار الأربعة عشر في نقرة إبهامه ما ظهرت. فيقول لهم: أنا ربكم، فيتعوذون بالله منه.

ثم يتجلى لهم الله تعالى في الصورة التي كانوا يعرفونها، وسمعوه وهو يضحك، فيسجدون له جميعهم، فيقول: أهلاً بكم.

ثم ينطلق بهم سبحانه إلى الجنة، فيتبعونه، فيمر بهم على الصراط والناس أفواج، أعني المرسلين، ثم النبيين، ثم الصديقين، ثم المحسنين، ثم الشهداء، ثم المؤمنين، ثم العارفين، ويبقى المسلمون منهم المكبوب على وجهه، ومنهم المحبوس في الأعراف، ومنهم قوم قصروا عن تمام الإيمان، ومنهم من يجوز الصراط على مائة عام، وآخر على ألف عام.

ومع ذلك كله لم تحرق النار كل من رأى ربه عياناً، لا يضام في رؤيته.

وأما المسلم والمحسن والمؤمن فقد كشفنا عن مقام كل واحد منهم في كتابنا المسمى بالاستدراج، وهم في زمرة الانطلاق قد كثر مرورهم وترددهم بالجوع والعطش، قد تفتّتت أكبادهم، لهم نفس كالدخان، يشربون من الحوض بكؤوس

عدد نجوم السماء، وماؤه من نهر الكوثر، وقدره من إيلياء إلى صنعاء طولاً، وعرضه من عدن إلى يثرب. وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «**منبري على حوضي**»[1].

أي: على حافتيه في المكيال والمقدار. والمذادون عنه هم المشتغلون في حبس الصراط بمساوىء قبائح ذنوبهم، فكم من متوضىء لا يحسن أن يسبغ وضوءه، وكم من مصلٍّ لم يسأل عن صلاته؛ اتخذ صلاته حكاية قد عريت من الخضوع والخشوع، لو قرصته نملة لالتفت، والعارفون بجلال الله لو قطعت أيديهم وأرجلهم ما ارتجوا لذلك، شغلتهم الهيبة والفكرة لعملهم بقدر من قاموا بين يديه، فربما رجل لسعته العقرب في مجلس أمير من الأمراء لم يتحرك صبراً عليها، وتعظيماً للأمير في المجلس، فهذه حالة الآدميين مع مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف حال من يكون قائماً بين يدي الله عز وجل، وهيبته وسلطانه، وعظمته وجبروته.

وحكى الظالم العارف أنه يؤتى به إلى الله تعالى فتخرج عليه المظالم، ويتعلق به المظلوم، فيقول له: التفت أيها المظلوم فوق رأسك، فإذا بقصر عظيم تحار فيه الأبصار، فيقول: ما هذا يا رب؟ فيقول: إنه للبيع، فاشتره مني، فيقول: ليس معي ثمنه، فيقول: إن ثمن هذا أن تبرىء مظلمة أخيك، فالقصر لك، فيقول: قد فعلت يا رب.

هكذا يفعل الله بالظالمين الأوابين، وهو قوله تعالى: ﴿ **فإنه كان للأوابين غفوراً** ﴾[2].

والأواب الذي أقلع عن الذنب، فلم يعد أبداً، وقد سمي داود عليه السلام أواباً، وغيره من المرسلين.

* * *

---

(١) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٥ من الصلاة في مسجد مكة، والباب ١٣ من كتاب فضائل المدينة، والباب ٥٣ من كتاب الرقاق، والباب ١٦ من الاعتصام. وصحيح مسلم، الحديث ٥٠٢ من كتاب الحج. ومسند أحمد ٢/٢٣٦، ٣٧٦، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٣٨، ٤٦٦، ٥٢٨، ٥٣٣، ٣/٤، ٩١، ٥/٢٨٠ - ٢٨٣، ٦/١٢١).

(٢) سورة: الإسراء، الآية: ٢٥.

# فصــل
# في كيفية دعاء أهل الموقف وذكر الاختلاف فيما جاء في تفسيره

وفي الصحيح أن أول ما يقضي اللهِ تعالى في الدماء، وأول من يعطي الله أجورهم الذين ذهبت أبصارهم.

نعم ينادى يوم القيامة بالمكفوفين، فيقال لهم: أنتم أحرى ـ أي: أحق ـ من ينظر إليه، ثم يستحي الله منهم، فيقـول لهم: اذهبوا إلى ذات اليمين. ويعقد لهم راية، وتُجعل في يد شعيب عليه السلام، فيصير أمامهم، ومعهم من ملائكة النور ما لا يحصي عددهم إلا الله، يزفونهم كما تزف العروس، فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف، وصفة أحدهم في الصبر والحلم كابن عباس ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادى: أين أهل البلاء؟ ويريد المجذومين، فيؤتى بهم، فيجيبهم الله بتحية طيبة بالغة، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين، ويعقد لهم راية خضراء، وتجعل بيد أيوب عليه السلام، فيصير أمامهم إلى ذات اليمين وصفة المبتلى صبر وحلم، كعقيل بن أبي طالب، ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم ينادى: أين الشباب المعففون؟ فيؤتى بهم إلى الله، فيترحب بهم، ويقول ما شاء الله أن يقول، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، ويعقد لهم راية خضراء، ثم تجعل في يد يوسف عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين. وصفة الشباب صبر وحلم، كراشد بن سليمان ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم يخرج النداء: أين المتحابون في الله؟ فيؤتى بهم إلى الله، فيترحب بهم ويقول ما شاء الله، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، وصفة المتحابين في الله صبر

وحلم، لا يسخط ولا يسيء من توارد الأحوال الدنيوية كأبي تراب - أعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه - ومن ضاهاه من هذه الأمة.

ثم يخرج النداء: أين الباكون من خشية الله؟ فيؤتى بهم إلى الله، فتوزن دموعهم، ودماء الشهداء، ومداد العلماء، فيرجح الدمع، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين، ويعقد لهم راية ملونة؛ لأنهم بكوا في أنواع مختلفة: هذا بكى خوفاً، وهذا بكى طمعاً، وهذا بكى ندماً. وتجعل بيد نوح عليه السلام، فتهم العلماء بالتقدم عليهم، ويقولون: علمنا أبكاهم. فإذا النداء: على رسلك يا نوح، فتوقف الزمرة.

ثم يوزن مداد العلماء ودم الشهداء، فيرجح دم الشهداء على مداد العلماء، فيؤمر بهم إلى ذات اليمين، ويعقد لهم راية مزعفرة، وتجعل في يد يحيى. فهم العلماء بالتقدم، ويقولون: عن علمنا قاتلوا، فنحن أحق منهم بالتقدم.

فيضحك الله عزّ وجلّ، ويقول: **«هم عندي كأنبيائي، اشفعوا فيمن تشاؤون»**، فيشفع العالم في أهل بيته وجيرانه وإخوانه، ويأمر كل واحد منهم ملكاً ينادي في الناس: ألا إن فلاناً العالم قد أمره الله أن يشفع فيمن قضى له حاجة، أو أطعمه لقمة، أو سقاه شربة ماء حين عطش. فيقوم إليه من فعل معه شيئاً من ذلك فيشفع له.

وفي الصحيح أن أول من يشفع المرسلون، ثم النبيون، ثم العلماء، ويعقد لهم راية بيضاء تجعل في يد إبراهيم عليه السلام، فإنه أشد المرسلين مكاشفة، ونضرب عن هذا الفن.

ثم ينادي منادٍ: أين الفقراء؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى، فيقول لهم: **«مرحباً بمن كانت الدنيا سجنهم»**، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، وتعقد لهم راية صفراء، وتجعل في يد عيسى عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين.

ثم ينادى: أين الأغنياء؟ فيؤتى بهم إلى الله تعالى، فيعدد لهم ما خولهم خمسمائة عام، ثم يأمر بهم إلى ذات اليمين، وتعقد لهم راية ملونة، وتجعل بيد سليمان عليه السلام ويصير أمامهم إلى ذات اليمين.

وفي الحديث أن أربعة يستشهد عليهم بأربعة، ينادى بالأغنياء وأهل الغبطة، فيقال لهم: ما شغلكم عن عبادة الله؟ فيقولون: أعطانا ملكاً وغبطة شغلتنا عن القيام بحقه، فيقال: من أعظم ملكاً، أنتم أم سليمان؟ فيقولون: سليمان، فيقال: ما شغله ذلك عن القيام بحقي.

ثم يقال: أين أهل البلاء؟ فيؤتى بهم فيقولون لهم: أي شيء شغلكم عن عباد الله! فيقولون: ابتلانا الله في الدنيا فشغلنا عن ذكره والقيام بحقه، فيقال لهم: من أشر بلاء أنتم أم أيوب؟ فيقولون: أيوب، فيقال لهم: ما شغله ذلك عن القيام بحق الله.

ثم ينادى: أين الشباب والمماليك؟ فيؤتى بهم، فيقال لهم: ما شغلكم عن القيام بحق الله؟ فيقولون: ابتلانا الله في الدنيا بالفقر، شغلنا عن القيام بحق الله، فيقال لهم: من أشدّ فقراً عيسى أم أنتم؟ فيقولون: عيسى، فيقال: ما شغله عن ذكرنا. فمن ابتلي بشيء من هذه الأربع فليذكر صاحبه.

وقد كان ﷺ يقول في دعائه: **«اللهمَّ إني أعوذ بك من فتنة الغنى والفقر»**[1].

فاعتبروا بالمسيح، فقد صح أنه ما كان يملك شيئاً قط، وقد لبس جبة صوف عشرين سنة، وما كان في سياحته إلا كوز وسبحة ومشط، فرأى رجلاً يشرب بيده، فرمى الكوز ولم يمسكه بعد، ورأى رجلاً آخر يخلل لحيته بيده، فرمى المشط من يده ولم يمسكه بعد.

وكان يقول عليه السلام: دابتي رجلاي، وبيوتي كهوف الأرض، وطعامي نباتها، وشرابي أنهارها.

وفي بعض الصحف المنزلة: يـابن آدم، أنت مجزيّ بعملك، حسنه وسيئه في مدة الحياة، كالقتل متعمداً، والخطأ أيضاً إذا استهين بكفارته ولم يقتص، فاحذرهما، فإنهما فعل عظيم. والكبائر قد يرجى لصاحبها الشفاعة بعد التخليص،

---

(١) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٣٩، ٤٤، ٤٥، ٤٦ من كتاب الدعوات. وصحيح مسلم، حديث ٤٩ من كتاب الذكر، وسنن ابن ماجه، الباب ٣ من كتاب الدعاء).

فأكرمهم يخرج من النار بعد ألف سنة وقد امتحش.

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول في كلامه: يا ليتني ذلك الرجل. ولا شك أنه كان رحمه الله تعالى عالماً بأحكام الآخرة.

ويؤتى يوم القيامة برجل، فلم يجد حسنة ترجح بها ميزانه، أو قد اعتدلت بالسوية، فيقول الله تعالى له رحمة منه: **«اذهب في الناس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة»**، فيسير يجوس خلال الناس فما يجد أحداً يكلمه في ذلك، وكل من كلمه وسأله يقول: أخشى أن يخف ميزاني، أنا أحوج إليها منك، فييأس. فيقول له رجل: ما الذي تطلب؟ فيقول له: حسنة واحدة، فلقد مررت بقوم لهم منها ألوف، فبخلوا عليَّ. فيقول له الرجل: لقد لقيت الله تعالى فما وجدت في صحيفتي إلا حسنة واحدة، وما أظن أنها تغني عني شيئاً، خذها هبة مني إليك، فينطلق بها فرحاً مسروراً. فيقول الله له: كيف جاء لك؟ وهو سبحانه أعلم، فيقول: ما كان منه مع الرجل، فيدعى بالرجل الذي أعطاه الحسنة، فيقول الله تعالى: كرمي أوسع من كرمك، خذ بيد أخيك وانطلق به إلى الجنة.

وإذا استوت كفتا الميزان لرجل، فيقول الله: لا هو من أهل الجنة ولا هو من أهل النار، فيأتي الملك بصحيفته يضعها في كفة السيئات فيها مكتوب «أف»، فترجح على الحسنة لأنها كلمة عقوق، فيؤمرّ به إلى النار، فيلتفت الرجل ويطلب أن يرده الله إليه، فيقول: ردوه، ثم يقول له: أيها العبد العاق، لأي شيء تطلب الرد؟ فيقول: آلهي، إني رأيت أني سائر إلى النار لا بدَّ لي منها، وكنت عاقاً لأبي، فضعف عليَّ عذاب أبي وأنقذه منها. قال: فيضحك الله ويقول: عققته في الدنيا وبررته في الآخرة، خذ بيد أبيك وانطلق به إلى الجنة.

فما من أحد يذهب به إلى النار إلا والملائكة توقفه لعلمهم بسر أحكام الآخرة حتى لقد ينادى بقوم لا خلاق لهم خلقوا حطباً لها وحشواً، فيقال: وقفوهم انهم مسؤولون، فتحبس تلك الزمرة حتى يخرج النداء فيهم: ما لكم لا تناصرون. فيستسلمون ويعترفون بالذنب كما قال الله تعالى: ﴿**فاعترفوا بذنبهم**﴾[1]. فيدفعون دفعة واحدة إلى النار.

---

(١) سورة: الملك، الآية: ١١.

وكذا يؤتى بأهل الكبائر من الأمة، شيوخاً، وعجائز، ونساء، وشباناً. فإذا نظر إليهم مالك خازن جهنم، قال: أنتم معاشر الأشقياء، ما لي أرى أيديكم لا تغسل ولم تسود وجوهكم، ما ورد عليَّ أحسن حالاً منكم، فيقولون: يا مالك نحن أشقياء أمة محمد، دعنا نبكي على ذنوبنا. فيقول لهم: ابكوا فلن ينفعكم البكاء، فكم من شيخ وضع يده على لحيته يقول: واشيبتاه وأطول حزناه، وكم من كهل ينادي، واطول مصيبتاه وأذل مقاماه. وكم من شاب ينادي واشباباه، وكم من امرأة قد قبضت على شعرها وهي تنادي: واسوأتاه وافضيحتاه.

فإذا النداء من قبل الله تعالى: يا مالك أدخلهم النار من الباب الأول، فإذا همت النار أن تأخذهم يقولون بأجمعهم: لا إله إلا الله، فتفر النار منهم مسيرة خمسمائة عام، فيأخذون في البكاء، وإذا النداء: يا نار خذيهم، يا مالك أدخلهم الباب الأول.

فعند ذلك يسمع صلصلة كصلصلة الرعد، فإذا النار همت تحرق القلوب، زجرها مالك وجعل يقول: لا تحرقي قلباً فيه القرآن، وكان وعاء للإيمان، ولا تحرقي جباهاً سجدت للرحمن، فيعودون فيها.

وإذا برجل يعلو صوته على صوت أهل النار صياحاً، فيقول: يا رب، حاسبتني ولم أقنط من رحمتك، وعلمت أنك تسمعني فأكثرت الصياح، فيقول الله تعالى: «ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون، اذهب فقد غفرت لك». وكذا يخرج من النار فيقول الله له: خرجت من النار، فبأي عمل تدخل الجنة؟ فيقول: يا رب ما أسألك منها إلا يسيراً، فترفع له شجرة منها، فيقول الله: أرأيت إن أعطيتك هذه الشجرة تسألني غيرها، فيقول: لا وعزتك يا رب، فيقول الله: هي هبة مني إليك، فإذا أكل منها واستظل بظلها رفعت له شجرة أخرى أحسن منها فيجعل يكثر النظر إليها، فيقول الله تعالى: «ما لك لعلك أحببتها»، فيقول: نعم يا رب، فيقول له: «إن أعطيتك إياها، هل تسألني غيرها»؟ فيقول: لا يا رب، فإذا أكل واستظل بظلها رفعت له شجرة أحسن منها، فيجعل ينظر إليها، فيقول الله له: إن أعطيتك إياها تسألني غيرها؛ فيقول: لا وعزتك يا رب لا أسألك غيرها، فيضحك الله عزَّ وجل، فيدخل الجنة.

ومن غريب حكم الآخرة ان الرجل يؤتى به إلى الله فيحاسبه، ويوبخه، وتوزن له حسناته وسيئاته، وهو في ذلك كله يظن يقيناً أن الله ما اشتغل إلا بحسابه ووزنه، ولعل في تلك اللحظة حاسب فيها آلاف ألوف ما لا يحصي عدتهم إلا الله، كل منهم يظن أن الحساب له وحده، وكذا لا يرى بعضهم بعضاً، ولا يسمع أحدهم كلام الآخر ، بل كل واحد تحت أستاره، فسبحان من هذا شأنه، وهو قوله تعالى: ﴿**ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة**﴾[1].

وهو في قوله سر عجيب من أسرار الملكوت، إذ ليس لملكه حد محدود. فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

**شغل كل بنفسه:**

وفي هذه الحالة يأتي الرجل إلى ولده، فيقول له: يا بني إني كسوتك حيث لا تقدر تكسو نفسك، وأطعمتك طعاماً، وسقيتك شراباً حيث كنت عاجزاً عن ذلك، وكفلتك صغيراً حيث كنت لا تستطيع دفع الضراء، ولا جلب السـراء، فكم من فاكهة تمنيتها فابتعتها لك، حسبك ما ترى من هول القيامة، وسيئات أبيك كثيرة، فتحمل عني منها ولو سيئة فيخف عني، وأعطني ولو حسنة أزيدها في الميزان. فيفر منه الولد، ويقول له: أنا أحوج منك إليها، وكذا يفعل الفصيل مع الفصيلة، والصاحب والأخ، وهو قوله تعالى: ﴿**يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه**﴾[2].

وفي الحديث:

«**يحشر الناس عراة**». قالت عائشة رضي الله عنها: واسوأتاه، ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقرأ النبي ﷺ: ﴿**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾[3]: «إن شدة الهول وعظم الكرب تشغلهم أن ينظر بعضهم إلى بعض»[4].

---

(١) سورة: لقمان، الآية: ٢٨.

(٢) سورة: عبس، الآية: ٣٤، ٣٥، ٣٦.

(٣) سورة: عبس، الآية: ٣٧.

(٤) انظر: (صحيح البخاري، الباب ٨ من كتاب الأنبياء، والباب ١٤، ١٥ من سورة ٥ من كتاب =

فإذا استقر الناس في صعيد واحد طلعت عليهم سحابة سوداء، فأمطرتهم صحفاً منشرة، فإذا صحيفة المؤمن ورد، وإذا صحيفة الكافر ورقة سدر، والكل مكتوب، فتتطاير الصحف، فإذا هي بالميامن والمياسر، وليس عن اختيار وإنما هي تقع بيمينه وبشماله، وهو قوله تعالى: **﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾**[1].

وحكى بعض السلف من أهل التصنيف: أن الحوض يورد بعد جواز الصراط. وهو غلط فإنه لعين: يرده من قد جاز الصراط: ففي السبعة جسور يهلك الناس، والسبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، لا يرفع لهم ميزان، ولا يأخذون صحفاً وإنما هي براءة مكتوب فيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، هذه براءة فلان ابن فلان بدخول الجنة ونجاته من النار.

فإذا غفرت له ذنوبه، أخذ الملك بعضده، وجاس به خلال الموقف، ونادى: هذا فلان ابن فلانة قد غفر الله له ذنوبه، وسعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام.

**منازل الأنبياء والعلماء والشهداء:**

والرسل يوم القيامة على المنابر، والأنبياء والعلماء على سنابر صغار دونهم، منبر كل رسول على قدره، والعلماء العاملون على كراسي من نور، والشهداء والصالحون كقراء القرآن والمؤذنون على كثبان المسك. وهذه الطائفة العاملة أصحاب الكراسي هم الذين يطلبون الشفاعة من آدم عليه السلام ونوح حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ.

**شفاعة القرآن:**

وقد جاء أن القرآن يأتي يوم القيامة في صورة رجل حسن الوجه والخلق فيشفع، ويشفع الإسلام مثله. وقد ذكرنا حكاية الإسلام مع عمر بن الخطاب رضي

---

= التفسير، والباب ٤٥ من كتاب الرقاق. وصحيح مسلم، حديث ٥٨ من كتاب الجنة. وسنن الترمذي، الباب ٣ من كتاب القيامة. وسنن النسائي، الباب ١١٩ من كتاب الجنائز.

(١) سورة: الإسراء، الآية: ١٣.

الله عنه في كتاب الإحياء بعد مخاصمته، فيتعلق به من شاء الله فيهوي بهم إلى الجنة.

وكذلك تأتي الدنيا في صورة عجوز شمطاء، أقبح ما يكون، فيقال للناس: أتعرفون هذه ؟ فيقولون: نعوذ بالله من هذه، فيقال لهم: هذه الدنيا التي كنتم تتحاسدون عليها وتتباغضون فيها.

وكذلك يؤتى بالجمعة في صورة عروس تزف، فيحدق بها المؤمنون، ويحوط بهم كثبان المسك والكافور عليهم نور يتعجب منه كل من رآه في الموقف، فلم تزل بهم حتى تدخلهم الجنة.

فانظر إلى رحمة الله تعالى: وجود القرآن والإسلام والجمعة، وكيف هم أشخاص: القرآن موجود جبروتي، والإسلام كالصيام والصلاة والصبر.

ولا يلتفت إلى من احتج في تلاشي الأنفس عند الموت، بقوله يوم الخندق: **«اللهم رب الأجسام البالية، والأرواح الفانية»**.

فإن ذلك كله يحوج إلى العلوم، وقد نبهنا عليه في غير هذا الكتاب، وقصدنا الاختصار لسلوك طريق السنة، ولا يلتفت إلى البدع الطارئة على الشريعة من شياطين الإنس. فبشر المؤمنين بالرشاد وسلوك المراد.

نسأل الله العصمة والتوفيق بمنه وكرمه آمين. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *



# الحكمة في مخلوقات اللّه عزّ وجلّ

لحجة الإسلام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي

ت ٥٠٥ هـ.

تحقيـق

محمّد عبد القادر أحمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

## مقدمـــة المؤلـــف

الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين، وجعل التفكر في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه، وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحدوه، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه، فهو القيم بالقسط في جميع الأحوال، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال، فعلموا أنه الحليم القادر العليم، كما قال في كتابه الكريم: ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[1].

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وشفيع المـذنبين محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وشرّف وكرّم إلى يوم الدين.

أما بعـــد، يا أخي وفقك الله توفيق العارفين، وجمع لك خير الدنيا والدين، إنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه والتعظيم له في مخلوقاته، والتفكر في عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفاوت درجات المتقين، وضعت هذا الكتاب منبهاً لعقول أرباب الألباب، بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب.

فإن الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعاته، لقوله سبحانه:

---

(١) سورة: آل عمران، الآية: ١٨.

﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾[1].

وقوله: ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾[2].

إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي يفهمها، والمترقي في اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة.

وقد بوبته أبواباً، يشتمل كل باب على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق، وذلك حسب ما تنبهت له عقولنا فيما أشرنا إليه. مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى، وما وضع من الحكم في مخلوق واحد من مخلوقاته لعجزوا عن ذلك وما أدركته الخلائق، من ذلك ما وهب الله سبحانه لكل منهم وما سبق له من ربه سبحانه.

والله المسؤول أن ينفعنا به برحمته وجوده.

* * *

(١) سورة: يونس، الآية: ١٠١.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٣٠.

# بـــاب
# التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم

قال الله تعالى: ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج** ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **الله الذي خلق سبع سموات...** ﴾[2] الآية.

اعلم رحمك الله، أنك إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه؛ فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منصوبة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء من ذلك معد مهيأ لشأنه، والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه، فضروب النبات لمآربه، وأصناف الحيوانات مصروفة في مصالحه.

فخلق سبحانه السماء، وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها، ولو كانت أشعة أو أنواراً لأضرت الناظر إليها، فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار، وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة؛ لا سيما إذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها.

والملوك تعمل في سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر إليها راحة وانشراحاً، لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره مله وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والانشراح، بخلاف النظر إلى السماء وزينتها، فإن الناظر إليها من

---

(١) سورة: قٓ، الآية: ٦.

(٢) سورة: الطلاق، الآية: ١٢.

الملوك فمن دونهم، إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجئون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء.

وقد قالت الحكماء: يحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء.

وفيها انها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها، وبحركتها تسير الكواكب فتهتدي بها أهل الآفاق، وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق، ولا توجد مجردة ولا مقبلة صورة نور.

وقيل: إنها أنجم صغار متكاثفة مجتمعة يهتدي بها على السير من ضل ويحتر في أي جهة كانت فيقصدها، وقيل: إنها المشار إليها في قوله تعالى: ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾[1].

وقيل: الحبك الطرق.

وقيل: ذات الزينة، فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعته محكمة صمدية، تدل على سعة علم بارئها، وأمور ترتيبها كل تدل على إرادة منشئها فسبحان القادر العالم المريد.

وقيل: في النظر إلى السماء عشر فوائد:

تنقص الهم، وتقلل الوسواس، وتزيل وهم الخوف، وتذكر بالله، وتنشر في القلب التعظيم لله، وتزيل الفكر الرديئة، وتنفع لمرض السوداء، وتسلي المشتاق، وتؤنس المحبين، وهي قبلة دعاء الداعين.

* * *

---

(١) سورة: الذاريات، الآية: ٧.

# باب
# في حكمة الشمس

قال الله سبحانه: ﴿ وجعل الشمس سِراجاً ﴾[1].

اعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لأمور لا يستكمل علمها إلا الله وحده، فالذي ظهر من حكمته فيها أن جعل حركاتها لإقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض، ولولا ذلك لبطل أمر الدين، أو لولاه كيف كان الناس يسعون في معايشهم ويتصرفون في أمور لهم والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته؟ ولولا ضياء نورها ما انتفع بالأبصار، ولم تظهر الألوان.

وتأمل غروبها وغيبتها عمن طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة، ولولاه لم يكن للخلق هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء وراحة أبدانهم وخمود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم طعامهم وتفنيد الغذاء، ثم كان الحرص لحملهم على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في أبدانهم، فإن أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما هدءوا ولا فروا من حرصهم على نيل ما ينتفعون به.

ثم كانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من الحيوانات والنباتات، فهي بطلوعها في وقت وغروبها في وقت في النور بمنزلة سراج لأهل بيت يستضاء به وقتاً ويغيب وقتاً، ليهتدوا ويقروا، وهي في حرها بمنزلة نار يطبخ بها أهل الدار حتى إذا كمل طبيخهم واستغنوا عنها أخذها من جاورهم، وهو يحتاج إليها فينتفع حتى إذا قضى حاجتهْ سلمها لآخرين.

---

(١) سورة: نوح، الآية: ١٦.

فهي أبداً منصرفة في منافع أهل الأرض بتضاد النور والظلمة على تضادهما، متعاونين متضافرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه، وإلى هذه القضية أشار تعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة...﴾[1] الآية.

ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول، فيستقيم أمر النبات والحيوان.

انظر إلى مسيرها في فلكها في مدة سنة وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سخر ما بتقدير خالقها، فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت المواقيت، ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق، فانظر كيف جعل الله الليل سكناً ولباساً والنهار معاشاً.

وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص.

وانظر إلى إمالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء، فإذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان بإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة.

وأمّا ما في ذلك من المصلحة، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيه مواد الثمار، ويتكثف الهواء، فينشأ منه السحاب والمطر، وتشتد أبدان الحيوان، وتقوى أفعال الطبيعة.

وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء، فيطلع النبات بإذن الله وينور الشجر، وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل.

وفي الصيف يسخن الهواء فينضج الثمار، وتنحل فضول الأبدان، ويجف وجه الأرض فتتهيج لما يصلح لذلك من الأعمال.

وفي الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض، ويمتد الليل فيعمل فيه بعض

---

(١) سورة: القصص، الآية: ٧١.

الأعمال وتحسن فيه الزراعة، وكل ذلك يأتي بالتدريج وبقدر حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة، إلى غير ذلك مما يطول لو ذكر.

فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه، ثم تفكر في تنقّل الشمس في هذه البروج لإقامة دورة السنة، وهذا الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة: الشتاء والربيع والصيف والخريف، وتسير فيها على التمام، وفي القدر من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهي غاياتها، ثم تعود فتستأنف وقت السير، وبمسيرها تكمل السنة، ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم.

تأمل إشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى، فإنها لو بزغت في موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها إلا وجهة واحدة وخلت منها جميع الجهات، فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها، فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق، فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى الغرب على ما استتر عنها أول النهار، فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها.

ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار كيف وقتهما سبحانه على ما فيه صلاح العالم فصارا بمقدار لو تجاوزاه لأضرا بكل ما على وجـه الأرض من حيوان ونبات.

أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يفر ما دام يجد ضوء النهار، وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي فيؤول أمرها إلى تلفها.

وأما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق.

وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضاً لكان معوقـاً لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش، وتجمد الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد كالذي يحدث على النبات إذا كان الموضع لا تقع الشمس عليه.

* * *

# باب
# في حكمة خلق القمر والكواكب

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً** ﴾[1].

اعلم ـ وفقك الله ـ أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبرد الهواء وهدوء الحيوان وسكونه، فلم يجعله سبحانه ظلمة داجنة لا ضياء فيها البتة، فكان لا يمكن أن يعمل عملٌ فيه، وربما احتاج الناس إلى بعض أعمالهم في الليل إما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار، وقد يقع ذلك لشدة حرارة أو لغيره من الأسباب. فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما نحتاج إليه في المعونة على ذلك، فجعل طلوعه في بعض الليالي، وينقص نوره عن نور الشمس وحرها؛ لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم في النهار، فيعدم ما به يتمتعون من الهدوء والقرار فيضر ذلك بهم.

وجعل في الكواكب زينة السماء وأنساً وانشراحاً لأهل الأرض.

فانظر ما ألطف هذا التدبير!! جعل للظلمة دولة ومدة للحاجة إليها، وجعل خلالها من النور ليكمل به ما احتيج إليه.

ثم في القمر علم الشهور والسنين، وهو صلاح ونعمة من الله.

ثم في النجوم مآرب أخرى، فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة، والغراسة، والاهتداء بها في السفر في البر والبحر، وأشياء

---

(١) سورة: الفرقان، الآية: ٦١.

مما تحدث من الأنواء والحر والبرد، وبها يهتدي السيارون في ظلمة الليل، وقطع القفار الموحشة واللجج السائلة، كما قال تعالى: ﴿ **وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر** ﴾[1].

مع ما في ترددها في السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة، وفي تصريف القمر خاصة في استهلاله ومحاقه وزيادته ونقصانه واستنارته وكسوفه.

كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصريف لإصلاح العالم.

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دوراناً سريعاً، وسيرها معلوم مشاهد فإنا نشاهدها طالعة وغاربة، ولولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربع وعشرين ساعة، فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خفي عنا شدة مسيرها في فلكها لكانت تختطف الأبصار بتوهجها لسرعة حركتها، كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت في الجو.

فانظر لطف الباري سبحانه في تقدير سيرها في البعد البعيد، لكيلا يحدث من سيرها حادث لا يحتمل، فهي مقدرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة.

وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها مثل: الثريا، والجوزاء، والشّعري، فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها للناس، ويهتدون بها فكان في طلوع بعضها في وقت دون الآخر ما يدل على ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحهم؛ ولذلك جعلت بنات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر، فإنها لا تغيب ولا تتوارى.

ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقلات المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج، كما يستدل على أشياء تحدث في العالم بتنقل

---

(١) سورة الأنعام، الآية : ٩٧.

الشمس والقمر في منازلهما، ولو كانت متنقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف، ولا رسم يقاس عليه، لأنه إنما يعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها في البروج الدانية، كما يعرف سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها، فقد صار هذا الفلك شمسه وقمره ونجومه وبروجه تدور على هذا العالم بهذا دوراناً دائماً في الفصول الأربعة من السنة لصلاح ما فيه من حيوان ونبات وغير ذلك بتقدير العزيز العليم.

ومن عظيم الحكمة خلق الأفلاك التي بها ثبات هذا العالم على نهاية من الاتقان لطول البقاء وعدم التغير، فقد كفى الناس التغير في هذا الأمر الجليل الذي ليس قدرة ولا حيلة في إصلاحه لو نزل به تغير يوجب ذلك التغير أمراً في الأرض؛ إذ قوام الأرض مرتبط بالسماء، فالأمر في جميع ذلك ماض على قدرة الباري سبحانه لا يختل ولا يعتل ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته لصلاح العالم، فسبحان العليم القدير.

* * *

## بــاب
## في حكمة خلق الأرض

قال تعالى: ﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾[1].

ثم انظر كيف جعل الله الأرض مهاداً ليستقر عليها الحيوان، فإنه لا بدَّ له من مستقر، ولا غنى له عن قوت، فجميع الأرض محل للنبات لقوته، ومسكن يكنه من الحر والبرد، ومدفن يدفن فيه ما تؤذي رائحته، والجيف والأقذار من أجسام بني آدم وغيرها، كما قال سبحانه: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياءً وأمواتاً﴾[2].

قيل في تفسير هذه الآية: هذا القول وغيره. ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق لطلب مآربهم، فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان والحرث والنبات، وجعل فيها الاستقرار والثبات كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[3].

فأمكن الخلائق بهذا السفر فيها في مآربهم والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والانتقال لأعمالهم، فإنها لو كانت رجراجة متحركة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئاً من النبات وجميع الصناعات، وكانوا لا يتهنون بالعيش والأرض ترتج بهم من تحتهم، واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ترهيباً للخلق، وتخويفاً لهم، لعلهم يتقون الله، وينزعون عن الظلم والعصيان، فهذا أيضاً من الحكمة البالغة.

---

(١) سورة: الذاريات، الآية: ٤٨.

(٢) سورة: المرسلات، الآية: ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة: النازعات، الآية: ٣١، ٣٢، ٣٣.

ثم إن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص، أرأيت لو أفرط اليبس عليها حتى تكون بجملتها حجراً صلداً لما كانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيوانات، ولا كان يمكن فيها حرث ولا بناء، فجعل لينها لتتهيأ لهذه الأعمال.

ومن الحكمة في خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب ليحدر الماء على وجه الأرض، فيسقيها ويرويها، ثم يصير إلى البحر في آخر الأمر، فأشبه ذلك رفع أحد جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه، ولولا ذلك لبقي الماء مستبحراً على وجه الأرض، فيمتنع الناس من أعمالهم، وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك.

انظر إلى ما خلق الله فيها من المعادن وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة في منافعها وألوانها، مثل الذهب، والفضة، والياقوت، والزمرد، والبسنفش، وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة المختلفة في ألوانها، وأنواع أخر مما يصلح للأعمال والجمال، كالحديد، والنحاس، والقصدير، والرصاص، والكبريت، والزرنيخ، والتوتيا، والرخام، والجبس، والنفط، وأنواع لو عددت لطال ذكرها، وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم.

فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار، ثم انظر إلى إرادة إجادته من عمارتها وانتفاع العباد بها بجعلها هشة سهلة، بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال، فلو يبست كذلك لتعذرت، فإن الحرث لا يستقيم إلا مع رخو الأرض لزراعة الأقوات والثمر، وإلا فلا يتعدى إذا صلبت الماء إلى الحب، مع أن الحب لا يمكن دفنه إلَّا بعد أن تلين الأرض بالنداوة، ويأخذ الورق بالظهور وهي ضعيفة في ابتدائها في الأرض التربة.

ويمكن إذ ذلك عملها وتحريكها، حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء، فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق متلبسة بالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه، وجعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق من الفروع.

ومن رحمته في لينها أن يسر للناس حفر الآبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك، إذ لو حفرت في الجبال لصعب الأمر وشق.

ومن الحكمة في لينها تيسير السير للسعاة فيها، إذ لو صلبت لعسر السير، ولم تظهر الطرق، وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله:

﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**وجعلنا فيها فجاجاً سُبلاً لعلهم يهتدون**﴾[2].

ومن ذلك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها في البناء، وعمل اللبن، وأواني الفخار، وغير ذلك، والمواضع التي ينبت فيها الملح، والشب، والبورق، والكبريت، أكثرها تربته رخوة.

وأيضاً أجناس من النبات لا يوجد إلا في التراب والرمل دون الأرض المجلية، ويخلق فيها كثير من الحيوان، لسهولة حفرها، فتتخذ فيها مسارب، وبيوتاً تأوي إليها.

ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكرنا، فقد امتن سبحانه على سليمان عليه السلام بقوله: ﴿**وأسلنا له عين القِطر**﴾[3].

أي: سهلت له الانتفاع بالنحاس، وأطلعناه على معدنه، وقال امتناناً على عباده: ﴿**وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس**﴾[4].

والنزول بمعنى الخلق، كما قال سبحانه: ﴿**وأنزل لكم من الأنعام**﴾[5] أي خلق.

وألهمهم استخراج ما في الأرض من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم وما يحتاجون إليه في معاشهم، وفي اتخاذ أوانيهم، وفي ضبط ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته، واتخاذ أنواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج، ويتخذون منها

---

(١) سورة: الملك، الآية: ١٥.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٣١.

(٣) سورة: سبأ، الآية: ١٢.

(٤) سورة: الحديد، الآية: ٢٥.

(٥) سورة: الزمر، الآية: ٦.

أواني لحفظ ما يحصل فيها من الأمور النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج إليها، إذ لا غنى لهم عنها.

وكذلك يستخرج من المعادن الأكحال، مثل (الدهنج، والمرفتعنا)، والسادن، والتوتيا، وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم.

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال، قال الله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض﴾[3].

فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها إلا الله.

فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء المياه ليحيي بها العباد والبلاد، فلو كانت الأرض عارية من الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخو الأرض، فكانوا لا يجدون المياه إلا بعد حفر وتعب ومشقة، فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه، ويخرج أولاً فأولاً، فتكون منها عيون وأنهار وبحار، يرتوي بها العباد في أيام القيظ إلى أوان نزول غيث السماء.

ومن الجبال ما ليس في باطنه محلّ مياه، فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس، فيكون منه أنهار وسواق ينتفع بها إلى أوان نزول الغيث أيضاً.

ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به.

ومن منافع الجبال ما يثبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التي لا توجد إلا فيها، وما يثبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة، فيعمل منها السفن، وتعمر منها المساكن، وفيها الشعاري التي لا يوجد ما يعظم من الأخشاب إلا فيها، وكذلك

---

(١) سورة: النازعات، الآية: ٣٢.

(٢) سورة: النحل، الآية: ١٥.

(٣) سورة: المؤمنون، الآية: ١٨.

العقاقير أكثرها لا يوجد إلا بها، وفيها وهاد تنبت مزارع للأنعام ومزارع لبني آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح النحل.

ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من المساكن تقيهم الحر والبرد، ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى، وقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿**وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين**﴾[1].

ومن فوائدها أن جعلت أعلاماً يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض، ويستدل بها المسافرون في البحار على الموانىء والسواحل.

ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا تطيقه تتخذ عليها ما يحصّنها ويؤمّنها ويمنعها ممن تخافه، فتطمئن لذلك.

وانظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير مخصوص، ولم يجعل ذلك ميسراً في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته، كما جعل هذه السعة في المياه، وما ذلك إلا لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الأصلح، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم**﴾[2].

فسبحان العليم الحكيم.

* * *

---

(1) سورة: الحجر، الآية: ٨٢.

(2) سورة: الحجر، الآية: ٢١.

# بـــاب
# في حكمة البحر

قال الله تبارك وتعـالى: ﴿وهو الـذي سخر البحـر لتأكلوا منـه لحمـاً طرياً. . .﴾[1] الآية.

اعلم رحمك الله، أن الله سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها، فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى ان جميع المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالإضافه إلى الماء كربوة صغيرة في بحر عظيم، فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوان بالإضافة إلى ما خلق في البحر كإضافة الأرض إلى البحر.

وقد شاهدت عجائب فيها ما هو مكشوف منها، فتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما نشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض، ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما إذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاف وجبال أو جزائر، وما من صنف من أصناف حيوان البر من إنسان وطائر وفرس وبقر وغير ذلك إلا وفي البحر أمثالها وأضعافها، وفيه أجناس من الحيوانات لم تعهد أمثالها في البر، وكل منها قد دبره الباري سبحانه وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه! ولو استقصى ذكر ما يحتويه بعضه لاحتاج إلى وضع مجلدات.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً في صدف تحت الماء، وأثبت المرجان

---

(١) سورة: النحل، الآية: ١٤.

في جنح صخور في البحر، فقال سبحانه: ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾[1].

وذلك في معرض الامتنان، وقيل المرجان المذكور في القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ.

ثم قال: ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾[2].

وآلاؤه تفضله ونعمه.

ثم انظر ما يقذفه من العنبر وغيره من المنافع، ثم انظر إلى عجائب السفن، وكيف مسلكها على وجه الماء، تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل ما لهم من الأغراض، وجعلها من آياته ونعمه، فقال: ﴿**والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس**﴾[3].

فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم، وينتقلون بها من أقاليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن، ولو راموا الوصول بغيرها لأدّى إلى أعظم المشقات، وعجزوا عن نقل ما ينقل من المنقولات إلى ما بعد من البلاد والجهات، فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم خلق الأخشاب متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما يحمل به الأثقال، وألهم العباد اتخاذها سفناً.

ثم أرسل الرياح بمقادير في أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع إلى موضع آخر. ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التي تحملها شراعاً.

وانظر إلى ما يسره سبحانه في خلقه الماء، إذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الأجزاء، كأنه شيء واحد، لطيف التركيب، سريع القبول للتقطع، حتى كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للاتصال والانفصال، حتى يمكن سير السفن فيه.

---

(1) سورة: الرحمن، الآية: ٢٢.

(2) سورة: الرحمن، الآية: ١٣.

(3) سورة: البقرة، الآية: ١٦٤.

فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله، وفي بعضه متسع للفكر، وكل ذلك شواهد متظاهرة، ودلائل متضافرة، وآيات ناطقة بلسان حالها، مفصحة عن جلال بارئها، معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته، قائلة:

أما ترى تصويري وتركيبي وصفاتي زمناً واختلاف حالي وكثرة فوائدي، أيظن ذو لب سليم وعقل رصين أني تكونت بنفسي أو أبدعني أحد من جنسي؟ بل ذلك صنع القادر القهّار العزيز الجبار.

* * *

## بـــاب
## في حكمة خلق الماء

قال الله تبارك وتعالى: **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾**(١).

وقال سبحانه: **﴿فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾**(٢).

انظر وفقك الله إلى ما من به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو اضطر الإنسان إلى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها جميع ما يمكنه من خزائن الدنيا.

والعجب ما غفله العباد عن هذه النعمة العظيمة، وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها؟ ولو جعلها بقدر لضاق الأمر فيها. وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا.

ثم انظر لطافة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض ويخلخل أجزاءها فتتغذى عروق الشجر، ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنبات، وهو من طبعه الهبوط. ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لإماعة الأغذية في أجواف الحيوان ليتصرف الغذاء إلى موضعه جعل لشاربه في شربه لذة عند حاجته إليه وقبوله له، ويجد شاربه فيه نعيماً وراحة، وجعله مزيلاً للأدران عن الأبدان،

---

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) سورة: النمل، الآية: ٦٠.

والأوساخ عن الثياب وغيرها، وبالماء يبلُّ التراب فيصلح للبناء والأعمال، وبه يرطب كل يابس مما لا يمكن استعماله يابساً، وبه ترق الأشربة فيسوغ شربها، وبه تطفأ عاذبة النار إذا وقعت فيها، فلا تلتهب فيه، وأشرف الناس منها على ما يكرهون، وبه تزول الغصة إذا أشرف صاحبها على الموت، وبه يغتسل التعب الكل فيجد الراحة لوقته، وبه تستقيم المطبوخات وجميع الأشياء التي لا تستعمل ولا تصلح إلا رطبة، إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى لهم عنها.

فانظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها مع الغفلة عن قدرها مع شدة الحاجة إليها، فلو ضاقت لكدرت الحياة في الدنيا، فعلم بهذا أن الله تبارك وتعالى أراد بإنزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها الوصفُ لمن يروم حصرها، فسبحان المتفضل العظيم.

* * *

# بـــاب
# الحكمة في خلق الهواء

قال الله تعالى: ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين**﴾[1].

اعلم رحمك الله أن الهواء في خلقه تتخلله الرياح، ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر، وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات لأنه لها مثل الماء لحيوان البحر، فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التي فيها إلى قلبها، فكان هلاكها بسبب ذلك.

ثم انظر إلى الحكمة في سوق السحاب به، فيقطع المطر بانتقال السحاب في موضع يحتاج إلى المطر فيها للزراعة، فلولا لطف الباري بخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة في أماكنها، وامتنع انتفاع الأرض بها.

ثم انظر كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فينتفع أهلها، فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء إلا بمواضعها التي خلقت فيها خاصة، ولعسر نقلها بالدواب إلى غيرها من الأقاليم، وللعباد ضرورات تدعو إلى ما ينقل إليهم مما ليس يخلق عندهم، ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يجلها ويعلم فوائدها.

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة التي تتخلل أجزاء العالم فينقي بحركته عفن الأرض، فلولاه لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل.

---

(١) سورة: الحجر، الآية: ٢٢.

ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السوافي والرمال إلى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء وتستر وجوه جبال بالسافي، فيمكن الزراعة فيه وما فصل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه، وكل ذلك بحركة البحر بالهواء، فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد في أمورهم.

ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه، ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهاراً وبحاراً على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه.

فانظر إلى أثر رحمة الله، فسبحان اللطيف بخلقه المدبر لملكه.

ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها، وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى: **﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شرابٌ ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقومٍ يتفكرون﴾**[1].

ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث، فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم، فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً.

ألا ترى إلى الأمطار إذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضروات، وهدمت المساكن والبيوت، وقطعت السبل، ومنعت من الأسفار وكثير من الحرف والصناعات، ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات، وعفن الماء الذي في العيون والأودية، فأضر ذلك بالعباد، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الأمراض، وغلت بسببه الأسعار من الأقوات، وبطل المرعى، وتعذر على النحل ما يجده من الرطوبة التي يرعاها على الأزهار، وإذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء،

---

(١) سورة: النحل، الآية: ١٠، ١١.

ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر، فصلحت الأشياء واستقامت، وهذا هو الغالب من مشيئة الله.

فإن قيل: قد يقع من أحدهما ضرر في بعض الأوقات.

قلنا: قد يكون ذلك لتنبيه الإنسان بتضاد الأشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته انه هو الغالب، فيحصل لهم بتلك انزجار عن الظلم والعصيان، ألا ترى من سقم جسمه احتاج إلى ما يلائمه من الأدوية البشعة الكريهة ليصلح جسمه ويصح ما فسد منه، قال الله: ﴿**ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير**﴾[1]

* * *

---

(١) سورة: الشورى، الآية: ٢٧.

# بـــاب
# في حكمة خلق النار

**قال الله تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشِئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم﴾[1].**

اعلم وفقنا الله وإياك، أن الله خلق النار، وهي من أعظم النعم على عباده، ولما علم الله سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة، حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج إليها فيه، فهي مخزونة في الأجسام، ومنافعها كثيرة لا تحصى: فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط، ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل وشرب.

فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم، ثم انظر فيما يحتاج الناس إليه من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير وغير ذلك، فلولاها لم يكن شيء من الانتفاع من هذه الأشياء، فيها يذاب النحاس، فتعمل منه الأواني وغيرها، وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر، فقال تعالى: **﴿اعملوا آل داود شكراً﴾**[2].

وبه يلين الحديد فيعملون به أنواعاً من المنافع والآلات للحروب، مثل الدروع، والسيوف إلى غير ذلك مما يطول تعداده، وقد نبه الله تعالى على مثل

---

(١) سورة: الواقعة، الآية: ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤.

(٢) سورة: سبأ، الآية: ١٣.

هذا، فقال: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾[2].

ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار، وآلات يطرق بها، وآلات لقطع الجبال الصمّ، وآلات لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها، فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع؛ ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة، وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة.

ثم انظر إلى ما جعل الله تعالى في النار من الفرح والتروح عندما تغشى الناس ظلمة الليل، كيف يستضيئون بها، ويهتدون بنورها في جميع أحوالهم من أكل، وشرب، وتمهيد مراقد، ورؤية ما يؤذيهم، ومؤانسة مرضاهم، وقصدها، والعمل عليها براً وبحراً، فيجدون بوجودها أنساً، حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم، ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة، ويستعينون بها في الحروب ومقاومة حصون لا تملك إلا بها.

فانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم إن شاءوا خزنوها، وإن شاءوا أبرزوها.

* * *

(١) سورة: الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٠.

# باب
# في حكمة خلق الإنسان

قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين . . .﴾[1] إلى آخر ما وصفه سبحانه.

اعلم وفقك الله تعالى، أن الله عز وجل لما سبق في علمه خلق الخلق وبهم في هذه الدار، وتكليفهم فيها للبلوى والاختيار، خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض، فخلق سبحانه الذكر والأنثى، وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتى عجزوا عن الصبر وعدم الحيلة في اجتناب الشهوة، فساقتهم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع، وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به الى إيداع الماء في القرار المكين الذي يخلق فيه الجنين، فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن، وخرجت ماء دافقاً مندفعاً من بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة، فانتقلت بسبب الإفلاج من باطن إلى باطن، فكانت مع انتقالها باقية على أصلها، لأنها ماء مهين، أدنى شيء يباشرها يفسدها ويغير مزاجها، فهي ماء يختلط جميعه، مستوية أجزاؤه، لا تفاوت فيها بحال، فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد نقلها من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام.

ثم كساها اللحم، وشدها بالأعصاب والأوتار ونسجها بالعروق، وخلق الأعضاء وركبها، فدور سبحانه الرأس، وشق فيها السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ جعل العين للبصر.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.

ومن العجائب سرّ كونها مبصرة للأشياء، وهو أمر يعجز عن شرح سره. وركبها من سبع طبقات؛ لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها، فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الأبصار.

وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها، وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل إليها بما يؤذيها من غبار وغيره، فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقتها، ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضرّ بالعين ولا تنقص نقصاً يضر بها، وخلق في مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلاً لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين، وجعل الحاجبين جمالاً للوجه، وستراً للعينين وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوّهة، وجعل شعر الرأس واللحية قابلاً للزيادة والنقص، فيفعل فيهما ما يقصد به الجمال من غير تشويه.

ثم انظر إلى الفم واللسان وما في ذلك من الحكم، فجعل الشفتين ستراً للفم، كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة الى فتحه، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال، فلولاهما لتشوهت الخلق، وهما معينان على الكلام، واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان، وتقليب الطعام، وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه، ويسهل ابتلاعه.

ثم جعل الأسنان أعداداً متفرقة، ولم تكن عظماً واحداً، فإن أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقي، وجمع فيها بين النفع والجمال، وجعل ما كان معكوساً زائد الشعب حتى تطول مدته مع الصف الذي تحته، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام، وفي الأضراس كبر بلا تسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء، فإن المضغ هو الهضم الأول، وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام وجمالاً للفم، فأحكم أصولها، وحدد دروسها، وبيض لونها مع حمرة ما حولها، متساوية الرؤوس متناسبة التركيب، كأنها الدُّرُّ المنظوم.

ثم انظر كيف خلق في الفم نداوة محبوسة لا تظهر إلا في وقت الحاجة إليها، فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويهاً للإنسان، فجعلت ليبل بها ما

يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غيرِ عنت ولا ألم، فإذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التي خلقت للترطيب، وبقي منها ما يبل اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولئلا يجف، فإن جفافه مهلك للإنسان .

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه، إذ جعل للآكل لذة الأكل، فجعل الذوق في اللسان وغيره من أجزاء الفم، ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ، فيجد في ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت حاجة إلى تناوله، وليجتنب الشيء الذي لا يوافقه، ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة.

ثم إن الله تعالى شق السمع، وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضرر الدود، ويقتل أكثر الهوام التي تلج الأذن، وحفظ الأذن بصدفة لتجمع الصوت فترده إلى صماخها، وجعل فيها زيادة حس لتحس بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيرها، وجعل تعويجات ليطّرد فيها الصوت، ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه، فيتنبه فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم.

ثم انظر إلى إدراكه للشمومات بواسطة ولوج الهواء، وذلك سر لا يعلم حقيقته إلا الباري سبحانه، إلى غير ذلك.

ثم انظر كيف رفع الأنف في وسط الوجه، فأحسن شكله، وفتح منخريه، وجعل فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه، وليتنعم بالروائح العطرة، ويجتنب الخبائث القذرة، وليستنشق أيضاً روح الحياة غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه.

ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الأصوات، ودور اللسان في الحركات والتقطيعات، فيقطع الصوت في مجارٍ مختلفة تختلف بها الحروف ليسع طرق النطق، وجعل الحنجرة مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات، فلم يتشابه صوتان، كما خلق بين كل صورتين اختلافاً فلم تشتبه صورتان، بل يظهر بين كل صورتين فرقان، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت، وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان، وذلك لسر التعارف.

فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما، فخلق منهما خلقاً جعله مخالفاً لحق أبيه وأمه، ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف.

ثم أنظر لخلق اليدين تهديان إلى جلب المقاصد ودفع المضار ، وكيف عرض الكف وقسم الأصابع الخمس ، وقسم الأصابع بأنامل ، وجعل الأربعة في جانب والإبهام في جانب ، فيدور الإبهام على الجميع ، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستطيعوا بتدقيق الفكر خلقها على وجه آخر بوضع الأصابع على غير ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربعة ، وتفاوت الأربعة في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا على ذلك ، وبهذا الوضع صلح بها القبض والإعطاء . فإن بسطها كانت طبقاً يضع عليه ما يريد ، وإن جمعها كانت آلة يضرب بها . وإن ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة .

ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تضعف، ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها، وليحك بها جسمه عند الحاجة الى ذلك.

فانظر أقل الأشياء في جسمه لو عدمها وظهرت به حكة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه، وجلب ما ينتفع به في ذلك ولم يقم له غير الظفر مقامه في حك جسده، لأنه مخلوق لذلك ولغيره، فهو لا صلب كصلابة العظام، ولا رخو كرخاوة الجلد، يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلك.

ثم جعله يهتدي به إلى الحك في حالة نومه ويقظته ويقصد المواضع إلى جهتها من جسده، ولو احتاج إلى غيره واستعان به في حكها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة إلا بعد طول وتعب.

ثم انظر كيف مدّ منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعي، وزين القدمين بالأصابع، وجعلها زينة وقوة على السعي، وزين الأصابع أيضاً بالأظفار وقواها بها.

ثم انظر كيف خلق هذا كله من نطفة مهينة، ثم خلق منها عظام جسده

فجعلها أجساماً قوية صلبة لتكون قواماً للبدن وعماداً له، وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة، فمنها صغير، وطـويل، ومستـدير، ومجـوف ومصمت، وعريض ودقيق.

ثم أودع في أنانيب هذه العظام المخ الرقيق مصاناً لمصلحتها وتقويتها ولما كان الإنسان محتاجاً إلى جملة جسمه، وبعض أعضائها لتردده في حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظماً واحداً، بل عظاماً كثيرة، وبينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتاد أثبتها بأحد طرفي العظم وألصق الطرف الآخر كالرباط.

ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منها، ومن الآخر نقراً غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق، فصار الإنسان إذا أراد أن يحرك شيئاً من جسده دون غيره لم يمتنع عليه، فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انظر كيف جعل خلق الرأس مركباً من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور، وألف بعضها الى بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى، فمنها ستة تختص بالقحف، وأربعة وعشرون للحى الأعلى، واثنان للحى الأسفل، والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن، وبعضها حاد يصلح للقطع، ثم جعل الرقبة مركز الرأس، فركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات وزيادات ونقصان، لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها.

ثم ركب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة، وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة، ووصل به من أسفله عظم العصعص، وهو مؤلف من ثلاثة أخرى.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتف، وعظام اليدين، وعظام العانة، وعظام العجز، وعظام الفخذين، والساقين، وأصابع الرجلين، فجملة عدد العظام من بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً، سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل.

فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة، والمقصود من ذكر أعدادها تعظيم مدبرها وخالقها، وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص، بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالاً، واحتاج الإنسان الى قلعه ولو نقص منها واحد لاحتاج الإنسان إلى جبره، جعل سبحانه وتعالى في هذا الخلق عبرة لأولي الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها.

ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهي العضلات، فخلق في بدن الإنسان خمسمائة وتسع وعشرين عضلة، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها. فأربعة وعشرون منها لحركة العين وأجفانها، بحيث لو نقصت منها واحدة اختل أمر العين، وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه.

وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين ومنابتها وسعتها، فأعجب من هذا وشرحه يطول.

ثم عجائب ما فيه من المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم.

ثم انظر الى ما شرف به وخص في خلقه بأنه خلق ينتصب قائماً، ويستوي جالساً، ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه، ويمكنه العلاج والعمل، ولم يخلق مكبوباً على وجهه كعدة من الحيوانات، إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال.

ثم انظر من حيث الجملة الى ظاهر هذا الإنسان وباطنه، فتجده مصنوعاً صنعة بحكمة تقضي منها العجب، وقد جعل سبحانه أعضاءه تامة بالغذاء، والغذاء متوال عليها. لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها، بل يقف عندها ولا يزيد عليها، فإنها لو تزايدت بتوالي الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم، وثقلت عن الحركة؛ وعطلت عن الصناعات اللطيفة ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها، ومن اللباس كذلك، ومن المساكن مثل ذلك، وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقاً بخلقه، فإذا وجدت هذا كله صنعة الله تعالى من قطرة ماء، فما ظنك بصنعته في ملكوت السموات والأرض

وشمسها وقمرها وكواكبها، وما حكمته في أقدارها وأشكالها وأعدادها وأوضاعها، واجتماع بعضها وافتراق بعضها، واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا تظن أن ذرة في السموات والأرض وسائر عالم الله ينفك عن حكم، بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجمعها إلا الله سبحانه وتعالى، ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾[1] إلى آخر ما نبه به.

وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً وبصراً وحياة لم يقدروا على ذلك.

فانظر كيف خلقها سبحانه في الأرحام، وشكلها فأحسن تشكيلها، وقدرها فأحسن تقديرها، وصورها فأحسن تصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام في أرجائها، وحسن أشكال أعضائها، ورتب عروقها وأعصابها، ودبر ظاهرها وباطنها، وجعل فيها مجرى لغذائها، ليكون ذلك سبباً لبقائها مدة حياتها.

ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة - من القلب، والكبد، والمعدة، والطحال، والرئة، والرحم، والمثانة، والأمعاء - كل عضو بشكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص، فجعل في المعدة لنضج الغذاء عصباً معيناً شديداً لحاجتها، وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه، وجعل طحن الأضراس أولاً معيناً للمعدة على جودة طحنه وهضمه، وجعل الكبد لإحالة الغذاء الى الدم فيجذب منه إلى كل عضو من الغذاء ما يناسبه، فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم، وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب، وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره، وجعل الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد، فالطحال لجذب السوداء، والمرارة لجذب الصفراء، والكلية المائية عنه، والمثانة لقبول الماء عن الكلية، ثم يخرجه في مجرى الإحليل والعروق والكبد في اتصال الدم منه الى سائر أطراف البدن، وجعل جوهرها أنقى من جوهر اللحم ليصونه ويحصره، فهي بمنزلة الظروف والأوعية.

ثم انظر كيف دبره في الرحم ولطف به ألطافاً يطول شرحها، ولا يستكمل

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٧.

العلم بجملتها إلا خالقها، ويعجز الواصف عن وصف ما وصل إليه نظره من ذلك، فمن ذلك جعله فيها لا يحتاج إلى استدعاء، ولا يحتاج المولود إلى ما يبين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه، بل ذلك في الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الإغاثة في غذائه، ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب وكلفة التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء، فحينئذ أنبت له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده.

ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدريج الى حين كماله وبلوغه؛ وانظر وفكر في سر كونه يولد جاهلاً غير ذي عقل وفهم، فإنه لو كان ولد عاقلاً فيهما لأنكر الوجود عند خروجه إليه حتى يبقى حيران تائه العقل، إذ رأى ما لا يعرف، وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله، ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولاً وموضوعاً معصباً بالخرق، ومسجى في المهد مع كونه لا يستغنى عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد.

ثم كان لا يوجد له من الرقة له، والحلاوة والمحبة في القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه، فتبين أن ازدياد العقل والفهم فيه على التدريج أصلح به.

أفلا يرى كيف أقام كل شيء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب وأعلمه تقلب الخطأ في دقيقه وجليله؟

ثم انظر فيما إذا اشتد خلق فيه طريقاً وسبباً للتناسل، وخلق في وجهه شعراً ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان، ويجمله ويستر به غصون وجهه عند شيخوخته، وإن كانت أنثى أبقى وجهها نقياً من الشعر لتبقى لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما في ذلك من بقاء النسل.

فكر الآن فيما ذكرناه ودبره سبحانه في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهملاً؟

أرأيت لو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم، ألم يكن يذوى ويهلك ويجف كما يجف النبات إذا انقطع عنه الماء.

ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله، ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه؟ ولو لم يوافه اللبن عند ولادته، ألم يكن يموت جوعاً وعطشاً أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه؟.

ولو لم يخلق له الأسنان في وقتها، ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه؟

ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقي في هيئة النساء والصبيان، فلا ترى له هيبة ولا جلالاً ولا وقاراً، ومن ذا الذي يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها، إلا الذي أنشأه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً وتفضل عليه ومنَّ عليه بكل هذه النعم.

فكر في شهوة الجماع الداعية لإحيائه، والآلة الموصلة الى الرحم النطفة، والحركة الموجبة لاستخراج النطفة، وما في ذلك من التدبير المحكم.

ثم فكر في جملة أعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للارب الذي أريد منها، فالعينان للاهتداء بالنظر، واليدان للعلاج والحذف والدفع، والرجلان للسعي، والمعدة لهضم الطعام، والكبد للتخليص والتمييز، والفم للكلام ودخول الغذاء، والمنافذ لدفع الفضلات، وإذا تأملت كذلك مع سائر ما في الإنسان وجدته قد وضع على غاية الحكمة والصواب.

فكر في وصول الغذاء الى المعدة حتى ينضجه ويبعث صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء، ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها، فإنها خلقت دقيقة لا تحمل الغث فتقلبه بإذن الله دماً، وتنفذ الى سائر البدن في مجارٍ مهيأة لذلك، فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك ـ فتبارك الله رب العالمين ـ ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول إلى أعضاء أعدت لذلك ـ كما ذكرنا قبل هذا ـ فكونها كالأوعية تحمل هذه الفضلات؛ لكيلا تنتشر في البدن فتسقمه.

ثم انظر هل تجد في خلق البدن شيئاً لا معنى له؟ هل خلق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان؟ فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها، هل كان في الألوان منفعة؟ ولو لم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر؟ وهل

خلق السمع إلا ليدرك الأصوات؟ فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة، وكذلك سائر الحواس.

فكر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها، منها الضياء والهواء، فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها البصر، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت.

فكر فيمن عدم البصر والسمع وما يناله من الخلل، فإنه لا يرى أين يضع قدمه، ولا يدري ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان، ولا يدري بهجوم آفة أو عدو، ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات، وأما من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الأصوات المستحسنة والألحان المطربة، وتعظم المؤونة على من يخاطبه حتى ينصرم منه، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد، وكالميت وهو حي، وأما من عدم العقل فهو شر من البهائم.

فانظر كيف صارت هذه الجوارح، وهذه الأوصاف التي بها صلاح الإنسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده، وإذا فقد شيئاً اختل أمره وعظم مصابه، ومن بلي بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله ولينال بصبره على ذلك حظاً في الآخرة.

فانظر إلى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع؟ ثم فكر في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً، وما في ذلك من الحكمة والصواب، فالرأس مما خلق فرداً، وإن كثيراً من الحواس قد حوتها رأس واحدة ولو زاد عليه شيء، كان ثقلاً لا يحتاج إليه، فإن كان قسمين فإن تكلم واحدهما فضلة لا يحتاج إليها، وإن تكلم من أحدهما بخلاف ما يتكم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك، وأما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحاً.

واليدان خلقتا أزواجاً ولم يكن للإنسان خير في أن يكون يلم بيد واحدة لاختلال ما يعالجه من الأمور، فإنك ترى من شلت إحدى يديه ما يكون عنده من النقص؛ وإن يكلف بشيء لم يحكمه، ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين، وحكمة لرجلين ظاهرة.

فكر في تهيئة آلات الصوت، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لإصاغة الحروف والفم.

ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها، كيف يحصل الخلل في كلامه؟

ثم انظر الى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها الى الرئة، فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع، وما في اللسان من تقليب الطعام وإعانته على تسويغ الطعام والشراب، وما في الأسنان من المعونة أيضاً، ثم هي كالمسند للشفتين تمسكهما وتدعهما من داخل الفم، وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الإنسان، ثم هما على الفم كالباب.

فقد تبين أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف الى وجوه من المآرب وضروب من المصالح إن زاد أفسد وإن نقص أفسد، فذلك تقدير العزيز العليم.

فكر في الدماغ. إذا كشف عنه فإنك تجده قد لف بعضه فوق بعضه ليصونه من الأعراض، وأطبقت عليه الجمجمة والشعر ستر لها وجمال، وليبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك، فحصن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين؛ لعلمه بأنه مهم وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس.

ثم انظر كيف غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاؤه وأتقنها وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه، وإن ذلك اللائق به.

ثم انظر كيف جعل في الحلق منفذين أحدهما للصوت، وهو الحلقوم الواصل الى الرئة، والآخر للغذاء، وهو المريء الواصل الى المعدة، وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إليه، ثم جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تفتر ولا تخل، تأخذ وترد بغير كلفة، لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي الى التلف، ثم ملأ الجو هواء لهذه المصلحة ولغيرها.

ثم انظر كيف جعل منافذ البول والغائط إسراحاً يضبطها لكي لا يجري جرياناً دائماً فيفسد على الإنسان عيشته.

ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيراً كثيفاً ليقي الإنسان من ألم الجلوس

على الأرض كما يألم من الجلوس من نحل جسمه وقل لحمه إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل؟

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخياً أبداً، كيف يصل الماء الى موضع الخلق؟ ولو كان منعظاً أبداً، كيف يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك؟ بل جعله مستوراً، كأنه لم تخلق له شهوة.

ثم انظر: أليس أنه من حسن التدبير في البناء أن يكون الخلاء في أستر موضع في الدار؟ فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الإنسان في أستر موضع من جسده مغيب فيه، تلتقي عليه فخذاه بما عليهما من اللحم فتواريه به ويخفى ذكره، وذلك مخصوص بالإنسان لشرفه.

ثم انظر في خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان، ومن تقصيرهما مصلحة جعلا عديمي الحس حتى لا ينال الإنسان ألم عند التزين بقصهما، ولولا هذه الحكمة لكان بين أمرين: إما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته.

ثم تفكر في الشعر لو نبت في العين لأعمى البصر، أو في الفم لنغص الأكل والشرب، أو في راحة الكف لنفذت لذة اللمس وبعض الأعمال، أو في الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباته فيها، فسبحان المدبر المنعم بهذه النعم.

فانظر كيف قصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر، ثم فيما جبل عليه الإنسان من الاحتياج الى المطعم والنوم والجماع وما في ذلك من التدبير المحكم، فقد جعل في طبعه محركاً يقتضيه ويستحثه، فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته، وكذلك الشراب الذي به قوامه، والنوم فيه راحة للبدن وعموم القوى، والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه؛ فلو كان الإنسان إنما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة إليه، ولم يجد من طباعه ما يلجئه اليه لاشتغل بأسباب ضرورته، فتنحل قواه ويهلك، كما أنه قد يحتاج إلى دواء يكرهه، وفيه صلاحه وليس في جبلته داعية له فيدافع عن تناوله فيمرض أو يموت.

فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته، فيهلك جسمه بالتعب والنصب.

وكذلك لو كان إقدامه على الجماع إنما هو لرغبة حصول الولد، لانقطع النسل لما يعارضه من الأسباب المشغلة.

فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره الى حصول هذه الفوائد!

انظر كيف رتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب!

فصار البدن بما فيه بمنزلة دار لملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار، فواحد لإمضاء حوائج الحشم وإيراد ماء لهم، وآخر لقبض ما يرد وخزنه الى أن يعالج ويهيأ، وآخر لإصلاح ذلك وتهيئته وإصلاحه أحسن مما كان قبلاً، وآخر لكسح ما في الدار من الأقذار وإخراجه، فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه، والدار هي البدن. والحشم هي الأعضاء. والقوم في هذه القوى الأربع التي هي النفس، وموقعها من الإنسان بمعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ والغضب وغير ذلك.

أرأيت لو نقص من الإنسان من هذه الصفات الحفظ وحده، كيف يكون حاله، وكان لا يحفظ ما له وما عليه، وما أصدر وما أورد، وما أعطى وما أخذ، وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له، ولم يذكر من أحسن إليه، ولا من أساء له ولا من نفعه ممن ضره. وكان لا يهتدي لطريق ولو سلكه، ولا لعلم ولو درسه، ولا ينتفع بتحريره، ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى.

فانظر إلى هذه النعم، كيف موقع الواحدة منها؟ فكيف جميعها؟ وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان، فلولا النسيان ما سلا الإنسان عن مصيبة، فكان لا ينقص له حسرة، ولا يذهب عنه حقد، ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع والمغضبات، وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة ولا ذهولاً من حاسد أو قاصد مضرة.

فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان، وجعل للإنسان في كل منهما ضروباً من المصالح.

ثم انظر إلى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء، فلولاه لم تقلّ العثرات ولم تقض الحاجات ولم يقر الضيف ولم يثمر الجميل فيفعل ولا يتجافى عن القبيح، فيترك حتى أن كثيراً من الأمور الواجبة؛ إنما تفعل لسبب الحياء من الناس، فترد الأمانات، وتراعي حقوق الوالدين وغيرهما، ويعف عن فعل الفواحش إلى غير ذلك لأنه يتمتع بالحياء.

فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة في هذه الصفة، وانظر ما أنعم الله به من النطق الذي يميز به الإنسان عن البهائم. فيعبر عما في ضميره ويفهم عن غيره ما في نفسه، وكذلك نعمة الكتابة التي تفيد أخبار الماضين للباقين، وأخبار الباقين للآتين، وبها تخلد في الكتب العلوم والآداب، ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست العلوم وضاعت الفضائل والآداب، وعظم الخلل الداخل على الناس في أمورهم بسبب عدمها.

فإن قلت: إن الكلام والكتابة مكتسبة للإنسان وليست بأمر طبيعي، ولذلك تختلف الخطوط بين عربي وهندى ورومي إلى غير ذلك، وكذلك الكلام هو شيء يصطلح عليه، فلذلك اختلف.

قلنا: ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة، والذهن والفكر الذي يهتدى به ليس بفعل الإنسان، ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبداً، فسبحان المنعم عليه بذلك. وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبداً، فسبحان المنعم عليه بذلك.

ثم انظر الى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها، ما خلق فيه من الحسد فيه يسعى في جلب ما ينتفع به، غير أنه مأمور بالاعتدال في هذين الأمرين فإن جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين، بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب على دفع الضرر، وفي الحسد على الغبطة، وهي إرادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره.

ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضاً صلاحه، فمن ذلك الأمل، فبسببه

تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة ، فان الخلق أول ما يخلق ضعيف، فلولا أنه يجد آثار قوم حلّوا وعمروا لم يكن له محل يأوي إليه، ولا آلة ينتفع بها، فكان الأمل سبباً لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين، وهكذا يتوارث الى يوم الدين.

ومنع الإنسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة.

فإنه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهن الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا لغير ذلك، ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات، ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عن ما يؤديه الى إتلافه، فكان في جهله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت، ومبادرة صالح الأعمال قبل فوات الأوان.

ثم انظر الى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها، وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها، وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيور يلتذ بسماعها، ونقود وجواهر يقتنيها ويصل بها الى أغراضه ويجدها في مهماته، وعقاقير يستعملها لحفظ صحته، وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وأزهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها، وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم.

فانظر ماذا ركب الله فيه من العجائب. ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملك ما ينتفع به بنو آدم ليتميز منهم الفقير من الغني ، فيكون ذلك سبباً لعمارة هذه الدار، ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الأحوال، فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبي ، فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضرّ به نفسه ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالاً عليه، وكم عسى أن يعد العادُّ من الحكم واللطائف التي يقصد بها قوام العالم وعبادته الى الأجل المعلوم وهي مما لا تدخل تحت حد ولا يحصرها عدّ، ولا يعلم منتهى حقائقها، وإحصاء جملتها إلا الحكيم العليم الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء وأحصى كل شيء عدداً.

***

## خاتمة لهذا الباب

اعلم أن الباري سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمي وكرمه، فقال سبحانه: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾(١).

فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل الذي تنبه به على البهجة وألحقه بسببه بعالم الملائكة، حتى تأهل به لمعرفة بارئه ومبدعه، بالنظر في مخلوقاته، واستدلاله على معرفة صفاته بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة.

قال الله العظيم: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾(٢).

فكان نظره في نفسه وفيما أودع الباريء سبحانه فيه من العقل الذي يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود بارئه ومدبره وخالقه ومصوره؛ فإنه ينظر في العقل كيف فيه التدبير، وفنون العلم، ومستقر المعرفة، وبصائر الحكمة ، والتمييز بين النفع والضر، وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصاً، ولا يسمع له حساً، ولا يجس له مجساً، ولا يشم له ريحاً، ولا يدرك له صورة ولا طعماً، وهو مع ذلك آمر ومطاع، وراج زيادة ومفكر ومشاهد الغيوب، ومتوهم للأمور، اتسع له ما ضاق عن الأبصار، ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية، يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سمواته وما فوقها، وأرضه وما تحتها، حتى كأنه شاهده أبين من رأي العين، فهو موضع الحكمة ومعدن العلم؛

---

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٧٠.

(٢) سورة: الذاريات، الآية: ٢١.

كلما ازداد علماً ازداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرك، فلا يكاد يميز بين الهمة بالحركة وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق. وان كانت الهمة قبل، وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه:

إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفة وهيئة أكثر من الإقرار بأنه مسلم للذي وصفه للعلم به، ومقر بالجهل بنفسه، وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير، ويفرق بين دقائق الصنع، وتجري الأمور وقد تدبرها، ويتوهم العواقب ويمثلها، ويدل على الأمور على اختلافها، فدل جهله بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصوّر مدبر مقهور، لأنه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين، يريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن يسر فيحزن، ويريد أن يغفل فيذكر، ويريد أن يتنبه ويتيقظ، فيسهو ويغفل، دلالة على أنه مغلوب مقهور، وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم، ومع ما دبر لا يدري كم مدى مبلغ صوته، ولا كيف خروجه، ولا كيف اتساق حروف كلامه، ولا كم مدى مبلغ نظره، ولا كيف ركب نوره، ولا كيف أدرك الأشخاص، ولا كم قدر قوته، ولا كيف تركيت إرادته وهمته.

فاستدل بعلمه وجحده عن حقيقة ما علم أنه مصنوع بصنعة متقنة، وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم عز وجل.

ثم انه خلق في الإنسان الهوى موافقاً لطباعه، فإن استعمل نور العقل فيما أمر به ورد مورد السلامة، وفاز غداً بدار الكرامة، وان استعمله في أغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب.

وهو الآلة له في عمل الصنائع وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها في ذهنه وتخيله، واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر، ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة في كل أمة وزمان، واستحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء، وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد.

فانظر ما شرف هذا الانسان أن خلق فيه ما يفيده هذه المعارف، فإن الأواني

تشرف بشرف ما يوضع فيها، ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك، ولما سبق في علم البارىء سبحانه وإرادته وحكمته بمصير الخلق الى دار غير هذه الدار، ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار، بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذي وهبهم إياه بنور الرسالة إليهم، فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته ومنذرين لأهل معصيته، فمدّهم بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه، فكانت أنوار ما جاء به بالوحي من عند الله بالنسبة الى نور العقل كالشمس بالإضافة الى نور النجم.

فدلوا العباد على مصالح دنياهم فيما لا تستقل بإدراكه عقولهم وأرشدوهم إلى مصالح أخراهم التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلاّ بواسطتهم، وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاءوا به ما أوجب الاذعان والانقياد لصدق أخبارهم، فتمت بذلك نعمة الله على عباده، وظهرت كرامته وثبتت حجته عليهم.

فانظر ما أشرف الآدمي ونسله الذين ظهر منهم هؤلاء الفضلاء الذين هم قابلون لهذه الزيادات الفاضلة، ثم تضافرت أنوار الشرائع التي هي كالشمس، وأنوار العقول التي هي كالنجم. فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنى، وشقاوة من كذب ولم يرد إلا الحياة الدنيا.

ثم إن الله تبارك وتعالى منَّ على الإنسان بأن خصه برؤ يا يراها في منامه، أو في عينه كشبه المنام يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه، وهي مبشرة أو منذرة له لما يتوقعه بين يديه، كل ذلك مواهب وكرامات من جود الله سبحانه، وجعل الله استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سبباً لصدقها في غالب الأمر، ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها، وهي الأمور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها واطلع على بعض الأمور منها من شاء.

***

# باب
# في حكمة خلق الطير

**قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلاّ الله﴾[1].**

اعلم رحمك الله: أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران، ولم يخلق فيه ما يثقله، وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذاءه، فقسم لكل عضو ما يناسبه؛ فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك انصرف الى كل عضو من غذائه ما هو لائق به، فخلق للطير الرجلين دون اليدين، لضرورة مشيه وتنقله، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه، واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض، وهي خف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغني به عن الريش في الحر والبرد، وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لأنه في رعيه، وطلب قوته لا يستغنى عن مواضع فيها الطين والماء، فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه، فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران.

وما خلق من الطير ذي أرجل طوال جعلت رقبته طويلة، لينال غذاءه من غير حرج بها؛ إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكب على صدره، وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق، ليزداد مطلبه عليه سهولة.

---

(١) سورة: النحل، الآية: ٧٩.

ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه، وخلق صدره ودائره ملفوفاً مربياً على عظم، كهيئة نصف دائرة، حتى يخرق في الهواء بغير كلفة وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران.

وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه، ويصلح لما يغتذي به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك، فمنها ما له منقار للتقطيع خص به الكواسر، وما قوته اللحم، ومنه عريض مشرشر جوانبه، تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً، ومنه معتدل اللقط وآكل الخضر، ومنه طويل المنقار للحصر وجعله صلباً شديداً شبه العظم، وفيه ليونة ما هي في العظم لكثرة الحاجة إلى استعماله وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان.

وقوى سبحانه أصل الريش، وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الاجنحة لأجل كثرة الطيران، ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج الى الإتقان لأجل الريش، وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد يتخلله الهواء للطيران، وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه، لكثرة ما تدعو الحاجة إليه، وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له، وثبت أصل جميعه لأنه جبيرته وجمله، وجعل في ريشه من الحكمة، أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه. فان أصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود الى خفته.

وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته.

وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه، فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً. فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي يعدل بها سيرها، وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته.

ولما كان يبتلع طعامه بلعاً بلا مضغ جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم به مقام ما يقطع بالمدية، وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً، وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغني به عن المضغ وثقل الأسنان، واعتبر ذلك بحب العنب وغيره، فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً، وينسحق في أجواف الطير.

ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران، فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها، ويعوق عن النهوض للطيران.

أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة؟

انظر إلى من أنزله وألهمه أن يلتقط الحب، فإذا ماع في باطنه غذى به أفراخه وهذا نوع من الطير.

ثم انظر مع هذا، كيف احتمل هذه المشقة، وليست له روية، ولا فكر في عاقبة، ولا له أمل يأمله في أفراخه، كما يأمل الإنسان في ولده من العز والرفد وبقاء الذكر.

فهل هذا قطعاً إلا إلهام إلّهي من فعل الله سبحانه؟

انظر كيف ألهم معرفة حمل الأنثى منه بالبيض؟ فألهموا حينئذ حمل الحشيش، وتوطئته في موضع التحضين والولادة، لتكون الرطوبة والتوطئة بحفظ البيض، ويكون البيض محفوظاً في المهاد الذي يمهدونه ويستحسنونه في حال تحضينه.

انظر الى الحمام، كيف ألهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه؟ وإن اتفق في البيض فساد، بسبب عرق، قام وتركه.

ثم انظر إلهامه بما يزق به فرخه، فإنه أولاً يزقه بالريح لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها، ثم بعد ذلك يزقه من أول هضم، ثم إذا ماع الغذاء في حوصلته يزقه به حتى بدرجة يفعل مراراً حتى يولي حوصلته، فانه لو أرسله إليه حباً صحيحاً لعجز عن هضمه لضعف جسده.

فانظر إن كان هذا من فعل الطير وحكمته.

ثم انظر عند خروج الفرخ من البيضة كيف يسنده إلى جنبه، لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به، ومن الطير مما يخلق على هيئة أخرى لحكمة أخرى.

ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد، بل كل حال له حكم يقوم

بمصلحة ذلك الشيء، وذلك أن الدجاج ما فيهم أهلية الزق، بل جعلت أفراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة.

ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى، كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهما؟ فيعقب هذا صاحبه، كأن لهم علماً بأن عدم هذا التدبير يفسد به البيض.

ثم انظر خلق البيضة، وما فيها من الحكم لله، ففيها المخ الأصفر الحاير، والماء الأبيض الرقيق، فبعضه لينشأ منه جسده، وبعضه يغتذي به إلى أن تنشق عنه، وما في ذلك من التدبير المحكم العجيب، وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة تلتقي به الى حين كماله فيها وخروجه منها؟

ثم انظر في حوصلة الطائر وما في خلقها من التدبير، فإن مسلك طعامه إلى القانصة ضيق لا ينفذ إليه إلا قليلاً قليلاً، فلو كان لا يلتقط حبة حتى تصل الأولى الى القانصة، لطال الأمر عليه مع ما فيه من شدة الحذر، وتجنبه ما يؤذيه، فصار ما يحتكره احتراساً لشدة حذره، فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليودع فيها ما أدرك من الطعام بسرعة، ثم ينفذه إلى القانصة على مهل، وفيها حكمة أخرى، فإن الطير الذي يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه.

ثم تأمل ريش الطائر فإنك تجده منسوجاً نسج الثوب من سلوك رفاق، وفيها من اليبس ما يمسك ما حولها، ومن اللين ما لا ينكسر معه وهي خاوية، قد ألف بعضها إلى بعض، كتأليف الخيط إلى الخيط، والشعر إلى الشعر، ثم تجده إذا فتحته أعني النسيج ينفتح قليلاً، ولا ينشق ليدخله الريح فتثقله عن طيرانه، وتجد في وسط الريشة عموداً غليظاً يابساً مثبتاً، قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته، فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء، وهي مع صلابتها مجوفة ليخف عليه طيرانه.

انظر الى الطائر الطويل الساقين، والحكمة في طولهما أنه يرعى أكثر رعيه في صحصاح، كأنه فوقه مراقب يتأمل ما يدب في الماء، فإذا رأى شيئاً من حاجة خطا خطواً رفيقاً حتى يتناوله، فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد

يصل بطنه إلى الماء فيهزه، فيذعر منه الصيد فيبعد عنه.

انظر إلى العصافير، وغيرها فإنها تطلب رزقها في طول نهارها، فلا هي تفقده، ولا هي تجده مجموعاً محله، وهو أمر جار على سنة الله في خلقه، فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق، فإن الطير لو وجده ميسراً أكبَّ عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلىء، فيثقل عن الطيران، ولا يستطيع رده أعني قذفه من بطنه، مثل طير الماء الكبير فإنه يأكل السمك، فإذا امتلأ منه وأزعجه مزعج تقيأه حتى يخف للطيران، وكذلك الناس أيضاً لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا إفراغاً يوقعهم في غاية الفساد.

انظر إلى هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا ليلاً، مثل البوم، والهام، والخفاش، فإن عيشها يتيسر في الجو، وكالبعوض والفراش، وشبهه، فإنها منبثة في هذا الجو فجعل عيشه في موضع أقرب إليه من الأرض، ولعلّ نوره لا يعينه أن يلتقط من الأرض، بدليل أنه لا يظهر في نور الشمس إلا مختفياً، فألهم أن يعيش في الجو من الفراش وغيره.

انظر إلى الخفاش لِـمَ خلق بغير ريشٍ، كيف خلق له ما يقوم مقامه؟ وجعل له فماً وأسناناً، ومثل ما في البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وأقدره على الطيران، فأظهر سبحانه فيه أن قدرته على الطيران لا تقتصر على ما خلق له الريش، ولا تنحصر في نوع واحدٍ، لأنه خلق هذا النوع، وخلق من السمك جنساً يطير على وجه البحر مسافة طويلة، ثم ينزل الماء فسبحان القاضي العليم.

انظر الى الذكر والأنثى من الحمام، كيف يتعاونان على الحضانة؟ فإذا احتاج أحدهما إلى قوته ناب الآخر الى آخر وقت الحضانة، ثم ألهمهما الحرص على الحضانة، فلا يطيلان الغيبة على البيض إذا خرج لنيل القوت حتى انهما يجتمع في أجوافهما البراز للحرص على الرقاد، فإذا اضطر إلى إخراج البراز أخرجه دفعة واحدة.

ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها، كيف يطردها وينقرها ولا يدعها تستقر خارجاً عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعه.

انظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها ما دامت محتاجة الى الزق، حتى إذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها صارت إذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه، واشتغل بغيرها.

ثم انظر ما خلق الله في الكواسر من شدة الطيران حتى لا يسبق له من يطلبه، ومن قوة المخلب وحدته في المنقار والأظفار، فكأن مخلبها مدية للقطع، وكأن مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى يصل إلى ما يحتاجه من قوتها.

انظر الى طير الماء لما جعل قوته في الماء، كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه؟ فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته.

***

# بـــاب
# في حكمة خلق البهائم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾[1].

اعلم وفقك الله وإيانا، أن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتناناً عليهم كما نبهت على ذلك هذه الآية، فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد، وضم بعضها إلى بعض، ولم يجعلها لينة رخوة، ولا صلبة كصلابة الحجارة، وجعل ذلك تجلداً اشتمل على أبدانها كلها، لتضبطها وتتقها؛ لأنها أريد منها القوة للعمل والحمل.

ثم خلقها سبحانه سميعة بصيرة ليبلغ الإنسان حاجته؛ لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الإنسان ولا وصل بها إلى شيء من مآربه.

ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله، لتذل للإنسان، فلا تمتنع عليه إذا أكدها عند حاجته إلى اكدادها في الطحن، وحمل الأثقال عليها إلى غير ذلك، وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها وهم لا يطيقون أعمالها ولا يقدرون عليها، ولو كلف العباد القيام بأعمالها، لأجهدهم ذلك، واستفرغ قواهم، فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصون بعملها، وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها وتحصيل الفضائل من العلوم والآداب، ولكان ذلك مع اتعابه لأبدانهم يضيق عليهم معايشهم، فكان قضاؤه على هذا وتسخيرها لهم من النعم العظيمة.

---

(١) سورة: النحل، الآية: ٨.

انظر في خلق أصناف من الحيوان وتهيئتها لما فيه صلاح كل صنف منها، فبنو آدم لما قدروا أن يكونوا ذوي علاج للصناعات واكتساب العلوم وسائر الفضائل، ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والتجارة وغير ذلك، خلقت لهم العقول والأذهان والفكر، وخلقت لهم الأكف ذوات الأصابع ليتمكنوا من القبض على الأشياء ومحاولات الصناعات.

وآكلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره، خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب.

وآكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد، خلقت لبعضها أظلاف كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى، ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كأخمص القدمين، لتنطبق على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان، كيف خلقت ذوات أسنان حداد، وأضراس شداد، وأفواه واسعة؟ وأعينت بسلاح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه، فإن ذلك كله صالح للصيد، فلو كانت البهائم التي عيشها على النبات ذوات مخالب، وأنياب كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه؛ لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم، ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح الذي به تصطاد.

فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته.

فانظر إلى أولاد ذوات الأربع، كيف تجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل كما يحتاج الآدميون! إذ لم يجعل في أمهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم والرفق في أحوال التربية والقوة عليها بالفكر والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره، فلذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها، ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج يدرج ويلقط عقيب خروجها من البيضة، وما كان منها ضعيفاً لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل في الأمهات عطفاً عليها، فصارت تعين الطعام في حواصلها، ثم تمجه في أفواه

فراخها، ولا يزال كذلك حتى ينهض وتستقل، فكل أعطي من اللطف والحكمة بقسط. فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى قوائم الحيوان، كيف ينتقل أزواجاً لتتهيأ للمشي؟ فلو كانت أفراداً لم تصلح لذلك، لأن المائي منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منها، فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين، وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه، ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسريو ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه، فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على اليسرى من مؤخره، ويعتمد الأخريين من خلاف أيضاً فتثبت على الأرض، ولا تسقط إذا مشى لسرعة التحاقهما فيما بين المشي والاعتماد.

أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن؟ والفرس مردعاً منها، والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى، وينقاد لصبي صغير، والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرثه، والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة في الحروب وقاية لراكبها، والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها، وربما أعجزت طالبها، وكذلك جميع الحيوان المسخر للإنسان، وما ذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي. فكان ذلك سبباً لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس، وإن أكدّها في كثير من الأحوال. وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكتهم نكاية شديدة عظيمة، ولعسر زجرها ودفعها، ولا سيما إذا اشتدت حاجتها في طلب قوتها ويشتد خللها.

ألا ترى إذا أحجمت عن الخلق وصارت في أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس، وتحجم عنها حتى صارت لا تظهر ولا تنبعث في طلب قوتها في غالب أحوالها إلا ليلاً، فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الإنس، بل هي ممنوعة منهم، ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم، وضيقت عليهم في مسالكهم.

ألا ترى الكلب وهو من بعض السباع، كيف سخر في حراسة منزل صاحبه

حتى صار يبذل نفسه، ويترك نومه، حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه؟ ثم انه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه، فيدفع عن نفسه ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء، فطبع على هذه الخلال لمنفعة الإنسان في الحراسة والاصطياد، ولما جعله الباري سبحانه حارساً أمده بسلاح، وهي الأنياب والأظفار واللهث القوي ليذعر به السارق والمريب، وليجتنب المواضع التي يحميها.

ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحاً مثبتاً على قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة، وجعل فرجها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها؛ إذ لو كان أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها، ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير، ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها، فإذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز الفحل حتى يتمكن من إتيانها فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل، وذلك من عظيم العبر.

ثم انظر كيف كسبت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات، وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفا، وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره، ولما كانت البهائم لا أذهان لها ولا أكف ولا أصابع تتهيأ للأعمال، كفيت مؤونة ما يضربها، بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت، فلا تحتاج إلى استبدال بها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي، فإنه ذو فهم وتدبير وأعضاء مهيأة لعمل ما يقترحه وله في أشغاله بذلك صلاح وفيه حكمة، فإنه خلق على قابلة لفعل الخير والشر وهو إلى فعل الشر أميل منه إلى فعل الخير، فجعلت الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه ليشتغل بها عما فيه فساده وهلاك دينه، فإنه لو أعطي الكفاية في كل أحواله أهلكه الأشر والبطر، وكان من أعظم الحيوانات فساداً في الأرض ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق لينال به السعادة إلى ما فيه شقاوته.

ثم إن الآدمي مكرم، يتخير من ضروب الملابس ما شاء، فيلبس منها ما شاء، ويخلع منها ما شاء، ويتزين بها، ويتجمل، ويتلذذ منها بما يشاء، ويكمل بها

زينته، وجماله، وبهاءه في عين من يصحبه، ويحب قربه، ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه، وهذا من باب النعمة عليه والكرامة له، بخلاف البهائم فإنها غنية عن هذا كله.

انظر فيما ألهم الله البهائم والوحوش في البراري، فإنها تواري أنفسها كما يواري الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت، وإلا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها، فإنك لو طلبت منها شيئاً لم تجده وليست قليلة فيخفى أمرها لقتلها، بل لو قال قائل إنها أكثر من الإنس لم يبعد، لأن الصحارى قد امتلأت من سباع وضباع وبقر وحمير ووعل وإبل وخنزير وذئاب وضروب من الهوام والحشرات وأصناف من الطير وغير ذلك مما لا يحصى عدده، وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها ولا يرى لها رمم موجودة، والذي أجرى الله به عادتها أن تكون في أماكنها، فإذا أحست بالموت أتت إلى مواضع خفية فتموت فيها.

فانظر هذا الأمر الذي ألهمت له هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه، وشخص لبني آدم بالفكر والتروي.

تأمل الدواب، كيف خلق أعينها شاخصة أمامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تتردى في حفرة؟ وإذا قربت من ذلك نفرت منه، وأبعدت نفسها عنه، وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه.

أليس الذي جبلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها لينتفع بها؟.

ثم انظر إلى فمها مشقوقاً إلى أسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعي، ولو جُعل كفم الإنسان لم تستطع أن تتناول شيئاً من الأرض، وأعينت بالجحفلة لتقصم بها ما قرب منها، فألهمت قصم ما فيه صلاحها وترك ما لا غذاء لها فيه ولا صلاح.

انظر ما كان من البهائم، كيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما في شربها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكاً يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه؟ فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الإنسان.

ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته، وكيف خلق كأنه غطاء في طرفه شعر؟ فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها، ومنها أن ما بين دبرها وطرق بطنها أبداً يكون فيه وضر يجتمع بسببه الذباب والبعوض، ويجتمع أيضاً على مؤخرها، فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها، فصار كأنه مدية في يدها تذب بها وتطرد عنها ما يضر بها، ثم إنها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضاً، ثم إن الدابة أيضاً أعينت بحركة مختصة، وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكاً تطرد به الذباب وغيره عنها، وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين، ومن الحكمة فيه أيضاً أن الدابة تستريح بتحريكه يمنة ويسرة، لأنها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها أيضاً بالحمل لبدنها والتصرف، فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة، وأعينت بسرعة حركته حتى لا يطول ألمها بما يعرض لها.

ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت في بركة، أو مهواة، أو وحلت في طين أو غيره، فلا تجد شيئاً أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها، ومن ذلك إذا خيف على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب، أو ليسبقها رأسها فتنكب على وجهها، فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يعدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها، إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم.

انظر إلى مشفر الفيل، وما فيه من الحكمة والتدبير، فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف وإيصاله إلى فمه، فلولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئاً في الأرض، إذ لم يجعل له عنق يمده كسائر الأنعام، فلما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم يمده فيتناول به ما يحتاجه، فسبحان اللطيف الخبير.

انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه، ومنخراً يتنفس منه، وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره، أو يناول من هو راكب عليه.

انظر إلى خلق الزرافة لما كان منشؤها في رياض شاهقة خلق لها عنقاً طويلاً لتدرك قوتها من تلك الأشجار.

تأمل في خلق الثعلب فإنه إذا حفر له بيتاً في الأرض جعل له فوهتين: إحداهما ينصرف منها، والأخرى يهرب منها إن طلب ويرفق مواضع في الأرض في بيته، فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه في المواضع التي رفقها، فخرج من خير المنافذ، وهي المواضع التي تحتها.

انظر ما خلق الله تبارك وتعالى في جبلته لصيانة نفسه.

وجملة القول في الحيوان، أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق، فما كان ينتفع الناس بأكله خلق فيه الانقياد والتذلل وجعل قُوتَهُ النبات، وما جعل منه للحمل جعله هادىء الطبع قليل الغضب منقاداً منفعلاً على صور يتهيأ منه الحمل، وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نظم خلق فيه هذا القبول للتعليم ليستعين العباد بصيده وحراسته، وأعين بآلات قد تقدم ذكرها، ومن جملة ذلك الفيل فإنه ذو فهم مخصوص به، وهو قابل للاستئناس والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب، ومنها ما له غضب وشر إلا أنه يأنس بالإنسان لمنفعته كالهرة، ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من الألفة والائتناس، فمن ذلك الحمام يألف موضعه، فسهل بسببه الاخبار بسرعة إذا دعت حاجة إلى ذلك، وجعله الله سبحانه وتعالى كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به، ومن ذلك البازي، فإن طباعه تنتقل إلى التأنس، وإن كان في طبعه مبايناً إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم، حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد، وما خفي من الحكم في خلق الله تعالى أكثر مما علم.

* * *

# بـــاب
# في حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت ودود القز والذباب وغير ذلك

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وما من دابةٍ في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاَّ أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾(١).

انظر إلى النمل، وما أُلهمته في احتشادها في جمع قوتها، وتعاونها على ذلك وإعداده لوقت عجزها عن الخروج، والتصرف بسبب حر أو برد، وألهمت في تقلب ذلك من الحزم ما ليس عند من يعرف العواقب، حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما حمله أو جهد به أعانه آخر فيه، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم إلاَّ بالتعاون. كما انها ألهمت حفر بيوت في الأرض تبتدىء في ذلك بإخراج ترابها، وتقصد إلى الحب الذي منه قوتها فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض، فما خلق هذا في جبلتها إلاَّ الرحمن الرحيم.

ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف، ثم إنها لا تتخذ البيوت إلاَّ فيما علاَ من الأرض خوفاً من السيل أن يغرقها.

ثم انظر إلى النحل، وما أُلهمته من العجائب والحكم، فإن الباري سبحانه جعل لها رئيسا تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها، فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر. وذلك لمصلحة ظاهرة وهي

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: ٣٨.

خوف الافتراق؛ لأنهما إذا كانا أميرين وسلك كل واحد منهما فجأ افترق النحل خلفهما. كما انها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار، فيستحيل في أجوافها عسلاً، فعلم من هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما أخبر سبحانه وتعالى، وفيه غذاء وملاذ للعباد، وفيه من أقوات فضلات عظيمة جعلت لمنافع بني آدم، فهي ما يفضل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتها وما فضل من ذلك، ففيه من البركة والكثرة ما ينتفع به الناس.

ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها لتوعي فيه العسل وتحفظه، فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح.

وانظر إلى هذه الذبابة، هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل؟ أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانته في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها؟.

ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها، ورجوعها عشية إلى أماكنها، وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها، ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل، ولها جهة أخرى يخرج منها برازها مباعداً عن مواضع العسل، وفيها غير هذا مما انفرد بعلمه.

انظر إلى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة، فإن الله خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه، وشركاً لصيدها، فهو مخلوق من جسدها، وجعل الله غذائها من أقواتها ينصرف إلى تقويم جسدها، وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبداً مثل الشرك، وفي ركن الشرك بيتها وتكون سعة بيتها بحيث يغيب شخصها، والشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك، فإذا أحست أن شيئاً من ذلك وقع في شركها خرجت إليه بسرعة، وأخذته محتاطة عليه، ورجعت إلى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات، وإن كانت مستغنية في ذلك الوقت شكلته وتركته إلى وقت حاجتها.

فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها، فبلغت في ذلك ما يبلغه

الإنسان بالفكرة والحيلة، كل ذلك لإصلاحها ولنيل قوتها، ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا.

ثم انظر من العجائب دود القز، وما خلق فيه من الأشياء التي يتحير منها ويذكر الله عند رؤيتها، فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الإنسان ومنافعه، فإن هذا الحيوان الذي يخلق من جسمه الحرير، وذلك أن البزر يحضن حتى إذا حمي عاد دوداً كالذَّرِّ، فيوضع هذا الدود على ورق التوت، فيغتذي منه، فلا يزال يرعى منه حتى يحضر جسمه لغزل الحرير، فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه داخل جوزة حرير تبدو جسماً ميتاً لا حياة فيه.

ثم انظر فإن الباري سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله، فعندما ينتهي من غزل الحرير ويعفي ذلك الجسم يقلبه الله إلى صورة فراشة صغيرة قريب من صورة النحل، فيجمع على بساط أو غيره، وهو في رأي العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى، فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى، ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها، وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن أولاً، ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر.

فانظر من ألهمها الرعي من ذلك الورق حتى يرتب منه، ومن ألهمها غزل أجسادها حريراً حتى يعني فيما غزلته، ومن ربى لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة يمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها، ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولا هذا الاجتماع.

ثم انظر ما يسره الباري سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمله من بني آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة.

وانظر هذا التسخير العجيب في هذا الحيوان اللطيف، وما أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع، وعجيب الفعل، وعظيم الاعتبار، وما جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإحياء العظام الرفات، سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم.

ثم انظر الذبابة وما أعينت به في نيل قوتها، فإنها خلقت بأجنحة تسرع بها إلى موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها ويضرّ بها، وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع، وتفضل اثنتان، فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللتين تليهما، وذلك لرقة أجنحتها، ولأن عينيها لم يخلق لهما أهداب، لأنهما بارزتان عن رأسها، وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم ويقع عليهم دائماً، وينغص عليهم عيشهم، ليعرِّفهم الباري سبحانه هوان الدنيا حتى تصغر عندهم، ويهون أمر فراقها، وهو وجه من وجوه الحكمة لهم.

تأمل كثيراً من الحيوان الصغير عندما تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به، ويبقى على ذلك ساعة، ثم يتحرك ويمشي، وهل ذلك إلا لأن ما يصطاد إنما يصطاد إذا دلت هيئته على عدم حياته، فإذا كان شبيهاً بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة.

تأمل العقاب عندما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر، ولا يجد فيها موضعاً لأكله؛ فيصعد بها في مخالبه حتى إذا أبعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها.

فانظر كيف ألهم الطريق في نيل قوته من غير عقل ولا روية!

انظر إلى الغراب لما كان مكروهاً خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كأنه يعلم الغيب فيمن يقصده، وألهم الاحتيال في إخفاء عشه لصون فراخه، وقلّ احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره، ولذلك قلّ أن يرى مجتمعاً مع أنثى، فهذا أبداً دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة، وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويتغذّى بدم البعير، ومن أرواث الدواب وقت تبرزها، وإذا وجد شيئاً من قوته وأكل منه وشبع، دفن باقيه حتى يعاوده وقتاً آخر. فما خلق هذا في طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب إلا الله؛ لأنه لا عقل له ولا روية.

انظر إلى الحدأة لما كانت مكروهة، حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها،

وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها، فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجو، فتنحط نحوه بسرعة، وألهمت معرفة من هو مقبل، ومن هو مدبر، فتخطف ما تخطفه من الناس من ورائهم، ولا تخطف مما يستقبلها لئلا يمنعها المستقبل بيديه، وأعينت لما كانت غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنهم السنانير، لا يكاد يسقط منها ما ترفعه، فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى الحيوان المسمى حرباء وما فيه من التدبير، فإنه خلق بطيئاً في نهضته، وكان لا بد لهِ من قوته، فخلق على صورة عجيبة، فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى يدرك صيده من غير حركة في جسده، ولا قصد إليه، ويبقى جامداً كأنه ليس من الحيوان، ثم أعطي مع السكون وهو أنه يتشكل في لون الشجرة التي يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها، ثم إذا قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة البرق، ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة، وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه، فقد سخر له ما يصطاد على هذه المسافة، وإذا رأى ما يريعه ويخيفه شكل على هيئة وشكل ينفر منه من يصطاد من الحيوان ويكرهه.

فانظر هذه الأشياء التي خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها.

انظر إلى الحيوان الذي يسمى سبع الذباب، وما أعطي من الحيلة والرفق فيما يقتات به، فإنك تجده يحس بالذباب قد وقع قريباً منه، فيركد ملياً حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به، فإذا أحس أن الذباب قد اطمأن دبّ دبيباً رقيقاً حتى لا ينفره حتى إذا صار قريباً منه بحيث يناله بوثبة، وثب عليه فأخذه، فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب، فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس ببطلان حركته، فيقبل عليه فيغتذي منه بما يلائمه.

فانظر إلى هذه الحيلة هل هي من فعله أو هي مخلوقة من أجل رزقه، فسبحان الباري الحكيم.

انظر إلى الذر والبعوض التي أوهن الله قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل

في كتابه، وهل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها من جناح تطير به، ورجل تعتمد عليها، وبصر تقصد به موضعاً تنال فيه قوتها، وآلة لهضم غذائها وإخراج فضلته؟

وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت، وهل يمكن أن يكون القوت في غير محل واحد، وإخراجه فضلته من غير منفذ؟

ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم، فسوّاها، وقدر أعضاءها، واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها، وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة، فهي بعوضة صغرت في النظر، ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض من الملائكة، فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين أرادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها، وحسن اعتدال صورتها في أعضائها لما قدروا على ذلك إلا تظاهراً لمنظر العجز منهم على عدم علم حقيقة الخبر؟ ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دماً وهو الذي منه غذاؤها؟ ولولا معرفتها به لم تدم على مصه حتى تطعمه، وكيف همتها التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي ألهمها ربها أن فيه غذائها، وكيف خرق سمعها؟ وكيف سمعت حسّ من يقصدها؟ وكيف عرفت أن نجاتها في الفرار، إذا ولت هاربة ممن قصدها؟ فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون، ولو جزءوها ما ازدادوا في أمرها إلا عمى وبعداً عن المعرفة.

فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة، فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

* * *

# بــاب
# في حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم

قال تعالى: ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾[1].

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال، وما فيه من الآيات البينات، فإنه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم، ولم يخلق فيه رئة، لأنه لا يتمشى وهو منغمس في لجة الماء، وخلقت له مكان القوائم زعانف شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء، وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه، متراصة كأنها درع لتقيه ما يعتدي عليه وما يؤذيه، وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة، وهي القشر المتداخل المخلوق على ظاهره، خلق له جلداً غليظاً متقناً يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره، وخلق له بصراً وسمعاً وشماً ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه.

وانظر كيف أعطي في قعر البحر ما يناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره؟

ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره، وجعل أكثر أصنافه يحمل، ولم يجعل الحمل منه مخصوصاً بالأنثى دون الذكر كحيوان البر، بل جعل الذكر والأنثى جنساً واحداً يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر، فيخلق من جوف واحدة عدداً لا يحصى، وذلك من كل بزرة حوتاً من الجنس، ومن جنس آخر يخلق في الأنهار وغيرها بغير توالد، فيخلق منها أعداداً لا تحصر دفعة واحدة.

---

(١) سورة : النحل، الآية: ١٤.

ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى، وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح وما شاكلهما، فيتولد منها بيض، فإذا فقس البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحدة من الجنس.

ولما علم الله سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره، ألقى الروح في بزره جميعه عندما يولد، فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه، فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كمال خلقه.

فانظر هذه الحكمة واللطف حيث لم يمكن حضانته في البحر ولا تربيته ولا معونته البتة، جعله مستقلاً بنفسه مستغنياً عن ذلك كله، ثم إن الله سبحانه كثره؛ لأن منه قوت جنسه وقوتاً لبني آدم والطير فلذلك كان كثيراً.

ثم انظر إلى سرعة حركته وإن لم تكن له آلة كغيره من الحيوان.

وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه، وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل السفينة برجلها في سيرها؟ وخلقت أرياشه ألواحاً من جانبيه ليعتدل بهما أيضاً في سيره، فهو بمنزلة المركب.

وانظر إلى عظامه، كيف خلقت مثل العمد يبنى عليها؟ ففي كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو، فهو كإنشاء المركب يمتد العظم الجافي الذي هو قوته، ويخرج من أضلاع إلى مراقي البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه.

وانظر إلى ما كان منه كاسراً، كيف أعين على نيل قوته لصلابة اللحم، وقوة النهضة، وكثرة الأسنان، حتى إنه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ.

انظر إلى ما خلق الله في البحر ضعيفاً قليل الحركة، مثل أصناف الصدف والحلزون، كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه، وجعل له بيتاً وسكناً، وجعل ما يوالي جسده ناعماً أنعم ما يكون، وربما ضر ببيت بعض أصناف الحلزون، حتى لا يكون فيه مطمع البتة، وأصناف منه خلقت، في محارات مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها،

فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطاً، وجعل لها أسباباً تلتصق بها في الجبل فلا يستطاع إخراجها إلا بغاية الجهد، وجعل لها قوتاً من رطوبة الجبل تتأتى حياتها بذلك.

وأما الحلزون الذي بيته كأنه كوكب فإنه يخرج رأسه يرعى، فإذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه في بيته، وختم عليه بطابع صلب من صلابة بيته، فيغيب أثره بالجملة.

فانظر هذا اللطف وأن الله لم يهمل شيئاً.

واعلم أن الله حافظ لما في البحار، وما في الآكام والجبال.

فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وانظر إلى أنواع السمك يرعى قرب البر الصغير منها، والجافي في الأعماق، وخلق الله في جوفه صبغاً كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضلة غذائه، كما يخلق اللبن في الضرع، فإذا أحسّ بما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه، ثم يذهب في الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغيير الماء، فعل الله ذلك له وقاية لنفسه، وفعل فيه مصالح أخرى لا يعلمها إلا خالقها.

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل أجنحة الخفاش، ينتقل بها عند وقوع الأنواع من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر.

انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف، وكثيراً ما يكون في الأنهار، وجعل الله فيه خاصية تصونه. إذا اقتربت منه يد من يأخذه، وفيه الروح تحذر البدن واليد، فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب، فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله في خلق واحد لامتلأت الكتب وعجز البشر عن استكمالها، وما هو المذكور في كل نوع تنبيه يشير إلى أمر عظيم.

* * *

# بــاب
# في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجةٍ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلٰه مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾[1].

انظر وفقك الله وسددك إلى ما على وجه الأرض من النبات، وما في نظره من النعم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض، ثم انظر إلى ما جعل الباري فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى، وخلق فيه الحب والنوى مخلوقاً لحفظ أنواع النبات، وجعل الثمار للغذاء، والتفكه، والأتبان منها للعلف والرعي، والحطب للوقود، والأخشاب للعمارة، وإنشاء السفن، ولغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها، والورق، والأزهار، والأصول، والعروق، والفروع، والصموغ لضروب من المصالح لا تحصى.

أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها، لكان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب والحطب، والأتبان وسائر المنافع، وإن وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها.

ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل، والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الأقوات وما فضل

---

(١) سورة: النمل، الآية: ٦٠.

ادخر للأمور المهمة والزراعات، وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة، وهي الحكمة التي عـم الله بها البلاد وأصلح بها العباد، وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف ثمرتها، حتى يكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم، ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه في مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه، ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف.

تأمل في هذه الحبوب فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط، لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم كما تخلق المشيمة على الجنين، فأما البزر وما أشبهه من الحبوب، فإنه يخرج من قشور صلبة على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير.

فانظر كيف حصنت الحبوب بهذه الحصون وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها، وإن كان يناله منها قوته إلا أن حاجة الآدمي أشد وأولى.

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات، فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم، كحاجة الحيوانات، ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات يوصل إليها غذاءها جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتجذب الماء من الأرض، فتغتذي بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار، فصارت الأرض كالأم المربية لها، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها، وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان من أمهاتها. ألـم تـرَ إلى عمد الخيم والفسطاط، كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل؟ فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب تمسكه وتقيمه، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية، لا سيما في الرياح العاصفة.

فانظر إلى حكمة الخالق، كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته.

وتأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً، لو كان مما يصنع بأيدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة، وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج.

فانظر كيف يخرج منه في المدة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة ولا حركة إلا قدرة الباري وإرادته وحكمه.

ثم انظر تلك العروق، كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل إليه المادة وهي بمنزلة العروق المبثوثة في بدن الإنسان لتوصل الغذاء إلى كل عضو منه، وأما ما غلظ من العروق فإنها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا ينتهك ويتمزق.

ثم انظر إلى العجم والنوى والعـلّـة فيه، فإنه جعل في جوف الثمرة، ليقوم مقامه إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب، فصار ذلك كالشيء النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه، فإن حدث على الذي في بعض المواضع حادث وجد منه في موضع آخر، ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها، ولولاه لسرحت وسرح الفساد إليها قبل إدراكها، وفي بعضها حب يؤكل وينتفع به منه ويستعمل في مصالح.

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب، وفوق العجم من العنبة، والهيئة التي تخرج عليها، وما في ذلك من الطعم واللذة والاستمتاع للعباد.

ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب، كالودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه.

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابة؟ وخلقت في ظاهره قشرة حتى إنه بسبب ذلك إن سقط في تراب أو غيره لا يفسد سريعاً، وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظاً، فصار قشره الخارج حافظاً لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه، وعندما يوضع في الأرض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء، وكلما ازداد غصناً ازداد عرقاً تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فهي كذلك إذ يتم غصنها قوتها، فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء والانكسار بالنقل أو بغيره، ويصعد الماء في جذورها إلى أعالي الشجرة فيقسمه الله سبحانه بالقسط وميزان الحق، فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشتبكة في الأوراق لاتصال الغذاء إلى جوانب الورق ما يليق بغذائها،

وللثمار غذاء صالح لها، وللأقماع واللجا والأزهار غذاء صالح لكل من ذلك ما يليق به ويصلحه، فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها.

ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقاً لخروج الثمار؟ لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء، فكانت الأوراق ساترة لها، وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى للثمرة عنها، فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الأشجار والثمار والأزهار؟ وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، فأشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير، وألوانها ما بين أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصافٍ ومتوسط، وطعومها ما بين حلو وحامض ومز ونفه ومر، وروائحها إلى عطرات لذيذات مختلفات، وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدور، ويكشف للمتأمل منه كل مستوره.

فانظر ما أودع الباري سبحانه فيها من السر عند النظر إليها، فإنها تجلو عن القلوب دونها عند مشاهدتها، وتنشرح الصدور برؤيتها، وتنتعش النفوس لرونق بهجتها، وأودع الله سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير، فمنها ما تقوى به القلوب، ومنها أغذية تحفظ الحياة، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها، وخلق فيها بزوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها.

**انظر وتأمل ما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾[1].**

فاخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتاً صافياً لذيذاً نافعاً، كما أخرج اللبن من بين فرث ودم، وأخرج من النحل شراباً عسلاً مختلفاً ألوانه فيه شفاءً للناس، ولو جمعت هذه الأشياء في مستقر لكانت مثل الأنوار وكل ذلك لمنافع العباد.

فانظر ما فيه من العبرة لذوي الأفكار.

---

(١) سورة: المؤمنون، الآية: ٢٠.

ثم انظر إلى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة، وكيف قسم الباري في غذاء النخلة؟ فقسم للجذور ما يصلح لها وللجريد، وما فيه من السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها، وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة، وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة في أول أمرها متراصة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة في غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها، حتى إذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء، فانشق عنها غلافها على التدريج، وهو الذي كان حافظاً لها، فيصير يفترق شيئاً بعد شيء على قدر ما تحتمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكمل قوتها، فتظهر جميعها على ما يضر بها ما يلقاها من حر وبرد، ثم تراها في النضج والطيب إلى بلوغ الغاية المقصودة منها فيلتذ حينئذٍ بأكلها ويمكن الانتفاع بادخارها، وتصرف في المآرب التي هيئت لها.

واعتبر ذلك في جميع الأشجار، فإنك ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يعتبر به كل ذي فهم ولب، فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير، فإنك ترى فيها شحماً مركوماً في نواصيها غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال في تلويه أو البناء الذي وسع أسفله للاستقرار، ورفق أعلاه حتى صار مرصوفاً رصفاً كأنه منضد بالأيدي، بل تعجز الأيدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور، وتراه مقسوماً أقساماً، وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله.

ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفاً بغير حواجز لم يمد بعضه بعضاً في الغذاء، فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء.

ألا ترى أصول الحب، كيف هي مركوزة في ذلك الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها؟ وإلى حبة حبة غذاءها ومن رقها وضعفها لا تقدر على الأكل ولا تعرف بها.

ثم انظر ما يصير من الحلاوة في الحب من أصول مرة شديدة المرارة قابضة.

ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه عن الاضطراب وتحفظه.

ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات، فإن هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات، وهو ما بين غذاء ودواء وتدعو الحاجة إليه في غير زمانه الذي يجنى فيه من شجرة، فحفظ على هذه الصفة لذلك.

انظر إلى عود الرمانة الذي هي متعلقة به، كيف خلق مثبتاً متقناً حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية؟ نحتاج إليها وهي من الثمرة المختصة بالإنسان دون غيره من الحيوان.

انظر إلى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين، وما أشبه ذلك وما فيه من التدبير، فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقاً رياناً ذا احتياج إلى الماء لا ينبت إلا به، جعل ما ينبت به منبسطاً على وجه الأرض، فلو كان منتصباً قائماً كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها، فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غاياتها، فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية، وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقي يمدها.

وانظر هذه الأصناف، كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح لها؟ ولمن تناولها؟ فهي له معونة عند الحاجة إليها ولو أتت في زمان البرد لنفرت النفوس عنها، ولأضرت بأكثر من يأكلها.

ثم انظر إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح خلق فيها الذكر الذي تحتاج إليه، لذلك حتى صار الذكر في النخل كأنه الذكر في الحيوان، وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع.

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة، فواحد يفور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة، وآخر لإخراج المرة السوداء. وآخر للبلغم، وآخر للصفراء، وآخر لتصريف الريح، وآخر لشد البطن في الطبيعة، وآخر للإسهال، وآخر للقيء، وآخر لروائحه، وآخر للمرضى والضعفاء، وكل ذلك من الماء، فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير.

* * *

## بـــاب
## ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب

قـال الله العـظيم: ﴿تسبـح لـه السمـوات السبـع والأرض ومن فيهن، وإن من شيءٍ إلا يسبـح بحمده ولكن لا تفقهـون تسبيحهم إنه كـان حليما غفوراً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾[3].

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات، وبراهين واضحة، ودلائل دالات على جلال باريها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته.

فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه.

ثم إنك إذا نظرت إلى مستقرك، وهي الأرض، وأجلت فكرك فيها، وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات، وما أحيط بها من بحار زاخرات، وما جرى فيها من الأنهار، وما انبث فيها من أصناف النباتات

---

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) سورة: الشورى، الآية: ٥.

(٣) سورة: الرعد، الآية: ١٣.

والأشجار، وما بث فيها من الدواب إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب.

ثم إذا نظرت إلى سعتها وبعد أكنافها، علمت عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها.

ثم إذا نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلق العظيم إلى السماء، وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وما ذكره النظار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفاً وستين جزءاً، وأن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة.

ثم إنك ترى هذه النيِّرات كلها من شمس، وقمر، ونجوم، قد حوتها السموات وهي مركوزة فيها، ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم، كيف يكون قدرها؟.

ثم انظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك في حدقة عينك مع صغرها، وبهذا تعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتقائه، ولأجل البعد ترى هذه النيِّرات صغيرة في رأي العين.

ثم انظر إلى عظم حركتها وأنت لا تحس بها ولا تدركها لبعدها.

ثم إنك لا تشك أن الفلك يسير في لحظة قدر كوكب، فيكون سيره في لحظة قدر الأرض مائة مرة وأكثر من ذلك وأنت غافل عن ذلك.

ثم فكر في عظم قدر هذه الأشياء، واسمع قسم الرب سبحانه بها في مواضع من الكتاب العزيز.

فقال عزّ وجلّ: **﴿والسماء ذات البروج﴾**[1] **﴿والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق * النجم الثاقب﴾**[2].

---

(١) سورة: البروج، الآية: ١.

(٢) سورة: الطارق، الآية: ١، ٢، ٣.

وقال: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[1] - إلى غير ذلك من الآي.

ثم ترق بنظرك إلى ما حواه العالم العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم، وما أخبر به جبريل عليه السلام النبي ﷺ، عن إسرافيل عليه السلام، يقول جبريل: «فكيف لو رأيت إسرافيل، وان العرش لعلى كاهله، وأن رجليه لفي تخوم الأرض السفلى»، وأعظم من هذا كله قوله عزّ وجلّ: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾[2].

فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم، فارفع نظرك إلى بارىء هذا العظيم، واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم، وعلى جلاله وقدرته وعلمه، ونفوذ مشيئته واتقان حكمته في بريته.

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله؟ ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته؟ فمن نظر في ملكوت السموات والأرض ونظر في ذلك بعقله ولبــه، استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره، وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل، وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقيناً وإذعاناً لبارئه وتعظيماً.

ثم الخلق في ذلك متفاوتون، فكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية. وأعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب العزيز، وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه. فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين بما عند الله.

ثم انظر وتأمل ما نشير إليه، فإنك علمت على الجملة أن رسول الله ﷺ، أسري به إلى أن بلغ المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى، واطلع على ملكوت ربه وتحقق أمر الآخرة والأولى، ودنا من ربه حتى كان كقاب قوسين أو أدنى.

---

(١) سورة: الواقعة، الآية: ٧٥، ٧٦.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٥٥.

فما ظنك بعلم من شرف بهذا المعنى.

ثم أمر بأن يقول: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾[1].

وعلمك بمعرفته ومنَّ عليك بنور هدايته واستعملنا وإياك بطاعته، جعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنّه وكرمه وجوده إنه ولي ذلك.

* * *

(١) سورة: طه، الآية: ١١٤.

# مراجع التحقيق


١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الآداب، للبيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ ـ آداب اللغة، لجرجي زيدان.

٤ ـ الأدب المفرد، للبخاري.

٥ ـ إتحاف السادة المتقين، للزبيدي.

٦ ـ الأحاديث الضعيفة، للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

٧ ـ الأسرار المرفوعة، لعلي القاري.

٨ ـ إحياء علوم الدين، للغزالي.

٩ ـ أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، للبيروني.

١٠ ـ تاريخ دمشق، لابن عساكر، مخطوط.

١١ ـ تبيين كذب المفتري، لابن عساكر، طبعة دمشق.

١٢ ـ التذكرة في الأحاديث المشتهرة، للزركشي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣ ـ تمييز الطيب من الخبيث، لابن الديبع.

١٤ ـ الجامع الكبير، للسيوطي، خط.

١٥ ـ الجامع الصغير، للسيوطي مع فيض القدير.

١٦ ـ سنن أبي داود، طبعة القاهرة.

١٧ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

١٨ ـ سنن النسائي مع شرحي السيوطي والسندي.

١٩ ـ سنن الدارقطني، طبعة هاشم اليماني.

٢٠ ـ السنن الكبرى، للبيهقي، طبعة القاهرة.

٢١ ـ سنن الدارمي، طبعة هاشم اليماني.

٢٢ ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، مخطوط.

٢٣ ـ شرح الصدور، للسيوطي، طبعة المدني.

٢٤ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد.

٢٥ ـ الشهاب، للقضاعي، تحقيق خمدي عبد المجيد السلفي.

٢٦ ـ الشهاب مع شرحه، طبعة القاهرة.
٢٧ ـ صحيح البخاري مع فتح الباري، الطبعة السلفية.
٢٨ ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
٢٩ ـ الطبقات العلية في مناقب الشافعية، للفقيه محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي، مخطوط.
٣٠ ـ الطبقات الصغرى للشعراني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.
٣١ ـ طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي.
٣٢ ـ عمل اليوم والليلة، لابن السني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.
٣٣ ـ الغماز على اللماز، لنور الدين أبي الحسن السمهود، تحقيق محمد عبد القادر عطا.
٣٤ ـ فيض القدير، للمناوي، طبعة القاهرة.
٣٥ ـ فتح الباري، لابن حجر، الطبعة السلفية.
٣٦ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف.
٣٧ ـ كشف الخفا، للعجلوني، طبعة القاهرة.
٣٨ ـ اللباب في شرح الشهاب، لأبي الوفا المراغي.
٣٩ ـ مسند أحمد بن حنبل، تصوير المكتب الإسلامي، بيروت.
٤٠ ـ المستدرك، للحاكم، تصوير بيروت.
٤١ ـ معجم المطبوعات، لإلياس سركيس.
٤٢ ـ مجمع الزوائد، للهيثمي، طبعة القاهرة.
٤٣ ـ مفتاح السعادة، لطاش كبرى زادة.
٤٤ ـ مؤلفات الغزالي، للدكتور عبد الرحمن بدوي.
٤٥ ـ المعجم الأوسط، للطبراني، بيروت.
٤٦ ـ المعجم الصغير للطبراني، طبعة القاهرة.
٤٧ ـ المعجم الكبير للطبراني، طبعة العراق.
٤٨ ـ موطأ مالك بشرح السيوطي، القاهرة.
٤٩ ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان، القاهرة.
٥٠ ـ الوافي بالوفيات، للصفدي.

# الفهـرس

فهرس